رواية

وَهجُ مَرحيلٍ أبَديّ

الكاتب: أنس كرونزة

«الأنيق بالصمت»

وهجُ رحيلٍ أبديٍّ

اسم الكتاب: وهجُ رحيلٍ أبديٍّ

الكاتب: أنس كروزة

عدد الصفحات: ١٩٣

تنسيق: نجاح عيتاني/ NAI

سنة الإصدار: 2026

الطبعة الأولى

٢٠٢٦

جميع الحقوق

محفوظة

إهداء

إلى أُولئكَ الذينَ يُواصِلونَ حَمْلَ قُلوبِهِم رَغمَ ثِقَلِها،
إلى الذينَ لَم يَجِدوا مَكانًا يَتْرُكونَ فيهِ وَجَعَهُم،
فَخَبَّأوهُ في صُدورِهِم كَي لا يَراهُ أَحد.
إلى كُلِّ شَخصٍ أَحَبَّ بصَمْت،
وصَمَتَ خَوْفًا مِن فَقْد لَم يَحْدُث بَعد...
وإلى الذينَ اختاروا الرَّحيلَ حِفاظًا على ما تَبقّى منهم،
ولَم يَنْتَبه أَحدٌ لِبُطولَتِهم الصَّغيرة تلك.
إلى الأَرواحِ التي تَتَعَثَّرُ ثُمَّ تَنْهَض،
إلى الذينَ يَبْتَسِمونَ وفي داخِلِهِم غُيومٌ لَم تُمْطِر بَعد،
وإلى الذينَ يَتَشَبَّثونَ بخَيْطٍ رَفيعٍ مِنَ الأَمَل
حَتّى حين يَنْقَطِعُ كُلُّ شَيءٍ حَوْلَهُم.
هذهِ الكَلِماتُ تُهديكم مَكانًا آمِنًا...
لَعَلَّكُم تَعثُرونَ هُنا على جُزءٍ نَسيتُموهُ مِن أَنْفُسِكُم.

مقدِّمة

تَبْدَأُ بَعْضُ الحِكايات في لَحظةٍ هادئةٍ لا نُلاحِظُها، لَحظةٍ لا يَصْحَبُها ضَجيجٌ أو إعلان بأنَّ شيئًا سَيَتَغَيَّر بَعدَ اليَوم.
ثُمَّ، مِن حَيْثُ لا نَدري، تَتَشَكَّلُ داخِلَنا مِساحةٌ جَديدة:
مِساحةٌ تُشبِهُ غُرفةً مُظلمة تُضاءُ ببُطء، أو نافِذةً تُفتَحُ في القَلْبِ أَكثَرَ مِمّا تُفتَحُ في الجِدار.

هذهِ الرِّوايةُ لَيْسَتْ عن الفَوْزِ أو الخَسارة، وليست عن الحُبِّ كما نعرِفُه، ولا عن الفِراق كما نرْويه.
إنَّها عن الطُّرُقِ الّتي تبتلِعُنا مِن الدّاخل، وعن القلوبِ الّتي تُحاوِلُ النَّجاة بقدرِ ما تُحاوِلُ الفهم.

هي رِوايةٌ عن المَسافات:
المَسافةِ بَيْنَ ما نَشعرُ به وما نُعلِنه، المَسافةِ بَيْنَ مَن نَكون وبينَ مَن نظُنُّ أن علينا أن نكون،
والمَسافةِ التي تَنمو بصمتٍ بين الأشخاص، حتى وهم يجلسونَ إلى طاولةٍ واحدة.

لا أحدَ هنا معصوم، ولا أحدٌ كامِل، ولا أحدٌ يسيرُ بثبات.
الجميعُ يتعلَّم، يتغيّر، يخسرُ شيئًا، ويكتسبُ شيئًا آخر دون أن يدري.

هذهِ الحكايةُ ليست خاتمة...
إنّها مِرآةٌ صغيرةٌ لرِحلةٍ طويلة، تقولُ لنا إنَّ الإنسانَ قد يَعيشُ عُمرًا كامِلًا يَبحثُ عن نَفسِه في الآخَرين، ثُمَّ يَكتشفُ مُتأخِّرًا أنَّهُ كانَ يبحثُ فقط عن طريقةٍ يُصالِحُ بها قلبَه.

وانيـــل

لم أكُن أُريدُ العَودة...
بل كانت العَودةُ هي الّتي سَحَبَتني مِن أطراف رُوحي، وأعادَتني إلى مدينةٍ تَركتُ فيها كُلَّ شيء، ولَم تَترُك لي إلّا صَمتًا أثقَلَ ممّا أحتمل.

عُدتُ كما يُعادُ شيءٌ كُسِرَ في المكانِ نفسه الّذي انكَسَرَ فيه أوّلَ مرّة...
مُجرّد رَجُلٍ يَحاوِلُ أن يبدو طبيعيًّا بينما الدّاخلُ يَتداعى بِبطء.

كانَ البيتُ غريبًا...
غُرفتي بارِدة، مُرتَّبة بشَكلٍ لا يُشبِهُنِي، وكأنَّها لَم تَفتَقِدني قط.
ابتَسَمتُ هَدوءًا، كعادَتي، أُخفي ما يَسقُطُ داخلي كي لا يراهُ أَحد.

عُدتُ للدِّراسة، لا شَغَفًا، بل بَحثًا عن أيِّ شيءٍ يَربِطُني بالأرض.

وفي أوّلِ يوم...
حينَ دَخَلتُ القاعة، تَحرَّكَ فى صَدري شىءٌ يشبهُ الحياة.
وكأنَّ قَلبي تَذكَّر نَبضَه.

وهُناك، عند النّافذة...
رأيتُ ميلار.

رفَعَت رأسَها لَحظةً عابِرة، لَم تَعْنِ شيئًا لَها...
لكنّها بالنّسبةِ لي كانت كافية لتُوقِظَ شيئًا نائمًا في أعماقي.

مُنذ ذلكَ الصّباح...
لَم تَعُد المدينةُ موحِشة، ولا العودةُ حِملًا ثَقيلاً كما ظننت.
كانت ميلار...
ضوءًا يَظهَر حينَ أكونُ على وِشْكِ السّقوط.

"لِماذا أَحبَبتُها؟"
لا أعرف...
ربّما لأنّني رأيتُ فيها ما افتَقَدتُهُ في نَفسي.

"ماذا كُنتُ بالنّسبةِ لَها؟"
رُبّما صَديقًا...
أو أقلّ مِن ذلك.
لكنّها بالنّسبةِ لي كانت القِصّة الّتي لَم أستطِع إغلاقَها، والوَجع الّذي لَم أستَطع الهَربَ منه.

كنتُ أُحِبُّها بِصَمت، صَمتٍ يَحفَظُها...
ويُدمِّرُني.

وكنتُ أعرِفُ النِّهاية، ومَعَ ذلك...
سِرتُ نَحوها كأنّني أركُضُ إلى قَدَري بقدميّ لا بِإرادتي.

ميـلادر

لم أكُن أعرفُ أنّ أحدًا كانَ ينظُر إليّ بتلكَ الطّريقة...
كنتُ أعيشُ أيامي كما يَعيشُها الجميع:
مَدارس، واجِبات، ضَغوط، وأحلامٌ مُؤجّلة.
ولَم أكُن أظنَّ أنّ وجودي يُحدثُ في حياةِ أحدٍ ذلك الاضطراب الهادئ الّذي لا يُعلَن.

كانَ رانيل دائمًا هناك...
هادئًا أكثر مما يجب، صامتًا بطريقةٍ تُشبِه سؤالًا كبيرًا لا يطرحُه، لكنّه يشعرُ به كلّ مَن حولَه.

كنتُ أراه...
لكن ليس كما رآني هو.
كنتُ أراه صديقًا، ظلًّا لطيفًا يمشي قربي دون أن يُزعِج خطواتي.
ولم أتخيَّل يومًا أنّ الصّمت الّذي يَسكنه كان يُخبئ هذا الكمّ من المشاعر.

كنتُ ألاحِظُ حُضوره...
لكنّي لم أفهم معناه.
أحيانًا كنتُ أشعُر أنَّ حديثه يختنق في حلقِه، وأحيانًا أُدركُ أنَّ عينيه تقولان شيئًا لا يقولُه فمه.

ومع ذلك...
كنتُ أُبعِد الفكرة عن رأسي، ربّما خوفًا، وربّما لأنّي لم أكُن جاهزة لمن يُحبّني بهذا العُمق.

رانيل...
كانَ يُشبهُ مَسافةً آمنة، شيئًا مُطمئنًا لا أفهمُ سببَ طمأنينته.
وحينَ كنتُ أضحك... كان يبتسم.
وحينَ كنتُ أتعب... كان يَراني.
لكنّي لم ألتفِتْ بما يكفي لأدركَ ماذا يعني ذلك.

"هل كنتُ أبادله الشعور؟"
لا أدري.
كنتُ أحاولُ فقط أن أعيش...
أن أستمر، وأن أُبعد عن قلبي كلَّ ما يُربكني.

"هل شعرتُ به؟"
نعم...
شعرتُ بوجوده، بهُدوئه، بالأمان الغريب الّذي يَمشي معه.
لكنّي كنتُ أخاف من مشاعرٍ لا أعرف كيف أتعاملُ معها.

وربّما...
ربّما لو عاد الزمن، لكنتُ نظرتُ إليه كما نظر إليّ.
لكنّ بعض الأشياء تأتي في وقتٍ غير مناسب، وبعض الأشخاص نلتقيهم بعد فوات الوقت الّذي كانَ قد يُنقِذ كلَّ شيء.

وَهجٌ يَصحُو مِنَ الصَّمت

الفصل الأول

وَهَجٌ يَصحُو منَ الصَّمْت

" صحوٌ يُوقظُ
جرحًا لم يَخمُد."

كانت المدينةُ تتنفّسُ بردًا رماديًّا حين عاد رانِيل، كأنّها تحتفظُ بظلّ ذلك الغياب الّذي طال أكثر ممّا ينبغي، لم يعُد إليها كما يذهب الناسُ ويعودون، بل عاد كما يُعادُ شيءٌ سقط من يدِ الزمن ثم التقطَه أخيرًا؛ لا ليُكمِل، بل ليُعاد إلى موضعه الأوّلَ رغم الكسور التي يعرف الجميعُ أنّها ما تزال فيه.

كانت الشوارعُ كما تذكّرها، لكنّه هو لم يعُد كما كان؛ وكلُّ خطوةٍ يخطوها على الأرصفة القديمة كانت تُذكّره بأنّ الأشياء لا تتغيّر، وأنّ الإنسان وحده هو الّذي يَتَشظّى في طريق العودة.

لم يحمل معه شيئًا لا خُطَطًا، ولا يقينًا، ولا رغبةً في أن يبدأ من جديد.
كان أشبه بظلٍّ يعود إلى مكانٍ اعتاد أن يبتلعه، وفي داخله كان الصمتُ يزداد ثقلًا كلّما اقتربَ من الأزقّة الّتي عرف فيها نفسَه للمرّة الأولى، وضَيَّعها للمرة الثانية، وتركها هاربةً منه في المرّة الثالثة.

كان أشبه بظلٍّ يعود إلى مكانٍ اعتاد أن يبتلعه، وفي داخله كان الصمتُ يزداد ثقلًا كلّما اقتربَ من الأزقّة الّتي عرف فيها نفسَه للمرّة الأولى، وضَيَّعها للمرة الثانية، وتركها هاربةً منه في المرّة الثالثة.

كأنّ ذاكرته تتقدّم إليه بخطواتٍ بطيئة؛ تلمسه، تجرحه، ثمّ تختفي قبل أن يلتقط أنفاسه.

كان يعرف أنّه لا يعود بحثًا عن شيءٍ، بل بحثًا عن نفسِه التي سقطت منه قبل سنوات، وظلّ يبحث عنها بين الطرقات الّتي تُبعِده أكثر ممّا تُقرّبه.

المدينة بالنسبة إليه لم تكن مكانًا، بل جُرحًا واسعًا يتنفّس من جديد كلّما عاد إليه، ورغم ذلك و رغم علمه التامّ أنّه يعود إلى شيءٍ لا يعرف كيف يحتويه و لم يتوقّف.

وفي اللحظة التي وقف فيها أمام باب غرفته القديمة، شعر وكأنّ الزمن يفتح ذراعيه ببرودٍ شديد، كمن يسخر منه، الغرفة نظيفة، مرتّبة، خالية من الفوضى التي كانت تحكي فوضاه الداخليّة القديمة، كان كلّ شيءٍ ساكنًا وهادئًا، وكأنّ المكان لم يشعر بفقده، ولم ينتبه لعودته.

جلس على طرف السرير، ومرّر أصابعه على الخشب البارد؛ وكان ذلك البرد يلامسُ داخله مباشرة، ويوقظ فيه صوتًا قديمًا حاول كثيرًا أن يُخمِده:

"أنتَ لستَ في المكان الذي تركتَه ولا المكانُ بقي كما تركتَه."

لم يُرِد أن يبقى في الغرفة طويلًا، فالصمت فيها كان يقترب منه أكثر ممّا يجب.

خرج بلا هدف، يمشي في شوارع يعرفها ولا يشعر بها كان وجهُه هادئًا، وملامحه ثابتة كصفحةٍ لا تتحرّك رغم الريح، لكنّ الداخل كان شيئًا آخر... شيئًا مُتعَبًا، ثقيلًا، مُتداعيًا كجدارٍ تحمل ذكراه أكثر ممّا تتحمّل حجارتُه.

ولم يعرف لماذا قادته خطواتُه إلى ذلك المبنى القديم الذي يعرفه الجميع، والذي لم يعُد يعني له شيئًا أو هكذا حاول إقناع نفسه، لكن حين وجد نفسه أمامه، أدرك أنّ قدميه سبقتا عقلَه، وأنّ شيئًا ما فيه ما يزال مُعلّقًا بذلك المكان شيءٌ صغير، لكنّه لم يمت.

دخل القاعة الّتي لم تتغيّر كثيرًا. المقاعد نفسها، الضوء نفسه، رائحة الورق نفسها، والنافذة نفسها الّتي كانت دائمًا تفتح على ضوءٍ خفيفٍ يدخل في كلّ صباح، وكأنّ الزمن هنا لم يتحرّك خطوة واحدةً، وبينما كان يحاول أن يبدو طبيعيًا، أن يتنفّس كما يفعل الجميع، أن يمرّ كأيّ وجهٍ لا يلتفت إليه أحد...

حدث شيءٌ لم يكن في حسبانه: تحرّك داخله شيءٌ يشبه الحياة. رفع نظره... وهناك، عند النافذة، كانت تقف.

ميلار.

لم تكن تنظر إليه، لم تكن تنتظر شيئًا، فقط كانت واقفة كعادتها، تراقب الضوء، أو الشارع، أو شيئًا لا يراه أحدٌ سواها.
حركةٌ بسيطة... رفعت رأسها وكأنّ نَسمةً لمست كتفَها، نظرةٌ عابرة جدًا، قصيرة جدًا، لكنها بالنسبة إليه كانت كافية لتعيد إليه شيئًا لم يعرف أنّه مفقود.
في تلك اللحظة، عاد قلبُه للنبض كما لو أنّ الحياة اكتشفت أنّه ما يزال موجودًا، شعورٌ حادّ، مفاجئ، يُشبه اصطدامَ ذكرى قديمة بوعيٍ جديد.
هل اشتاق إليها؟ أم اشتاق إلى نفسه التي كانت موجودةً قُربها؟
لم يعرف، الشيء المؤكّد الوحيد أنّه لم يتوقّع أن يراها ذلك اليوم ولا أن يهتزّ داخله بتلك القوّة.
كانت ميلار كما يتذكّرها، وربما أجمل ليست جميلةً بالمعنى الذي يلتقطه الآخرون بسرعة، بل جميلةً بالطريقة التي تُربِك الروح: هادئة، بسيطة، لكن في داخل هذا الهدوء شيءٌ يشبه الهاوية؛ شيءٌ يجذبك بلا قصد، ويحيّرك بلا كلمة.

كان يراها كأنّه يراها للمرة الأولى بعد غياب طويل، وكأنّ الصور القديمة التي احتفظ بها عنها لم تكن كافية لتقاوم حضورها الحقيقي.
كانت ترتّب كتبها على الطاولة بخفّة، وتشعر به ولا تشعر به في الوقت نفسه، هذا ما كان يُميّزها دائمًا:
أنك تراها، لكنك لا تعرف إن كانت تراك حقًا.

لم يشعر رانِيل أنّه يتحرّك، لكن خطواته قادتْه إلى مقعدٍ أقرب إلى النافذة، لم يتحدث، لم يبتسم، فقط جلس كمن يُخفي بداخله عاصفة كاملة، جزء منه كان يريد أن ينظر إليها باستمرار، وجزء آخر كان يهرب من النظر حتى لا يفضح ما داخله.
كان يخشى أن تكشفه عيناها — فهما دائمًا كانتا قادرتين على رؤية ما لا يستطيع هو إخفاءه.

لكن ميلار لم تلتفت، ظلّت كما هي، واقفة في منطقةٍ لا يصل إليها أحد، كانت قريبة جدًا... وبعيدة جدًا، وكان يشعر بها أكثر مما يراها؛ يشعر بهدوئها، بارتباكها الخفيف، بطريقة تنفّسها حين تُفكّر، بالطريقة التي تُرتّب بها الأشياء كلّما حاولت أن تنظّم فكرة داخلها، كل تلك التفاصيل الصغيرة التي ظنّ أنّه نسيها، كانت تعود إليه كأنّها تُسحَب من بئرٍ قديم في داخله.

تساءل:
"كيف استطاعت أن تبقى كما هي؟
وكيف استطعتُ أنا أن أبتعد عنها كلّ هذا الوقت؟"

لكنّ الأسئلة لم تكن مهمّة، ما كان يهمّه حقًا هو ذلك الوخز العميق في صدره؛ الوخز الّذي أخبره أنّ وجودها ما يزال قادرًا على إعادتِه إلى نقطةٍ ظنّ أنه تجاوزها منذ زمن.

أمّا هي...
فلم تكن تدري.

كانت تشعر بشيءٍ غريب، خفيف، غير مُسمّى كأنّ الهواء تغيّر فجأة، لم تفكّر كثيرًا، لكنها شعرت بأنّ حضورًا مألوفًا يقترب من المكان، لم تكن تعرف أنّه هو، لكنها شَعَرَت به.
ولوهلة، حين نظرت حولها بلا قصد، مرّت عيناها عليه.
نظرة قصيرة... لكنها كافية لتعيد إليها ذكرى لم تُتقِن نسيانها.

"رانيل..."
نطقت اسمه داخل عقلها فقط. كأنّ الاسم خرج من ظلالِ الأيام القديمة.

لم تكن تعرف ماذا تشعر، لم تكن تعرف إن كانت سعيدة، أو متفاجئة، أو قلقة. لكنها شعرت بشيءٍ ثقيلٍ يكبر داخل صدرها، شعور يشبه خوفًا صغيرًا يُرافق عودة شيءٍ كانت تظن أنّها نجحت في دفنه.
تذكّرت هدوءه، تذكّرت صمتَه، تذكّرت كيف كان ينظر إليها ثمّ يصرف نظره بسرعة، كمن يخشى أن يكشف العالم ما يخفيه قلبُه.
وتساءلت بصوت لا يسمعه أحد :
"**هل ما زال كما كان؟**"
لكنّها لم تعرف الجواب.

عاد إلى حياتها مثل ظلٍّ يدخل ببطء، يملأ المكان دون أن يحدث ضجيجًا، وجوده وحده أزعج سكونها الداخلي الّذي اعتادت عليه، لم تكن تعرف ماذا يعني أن يعود شخصٌ كهذا... شخص لم تحبّه، لكنها لم تقدِر يومًا على تجاهل حضوره.

لم تكن تدرك أن قلبه كان يمشي نحوها دون إرادة، وأنّه عاد وهو يعلم تمامًا أنّه سيقف عند حافة سقوطٍ جديد، ولم يكن يعرف أنّها، رغم هدوئها، تحمل في داخلها ارتباكًا لا يشبه أيّ شيء عاشَته من قبل.

كانا يقفان في المكان نفسه...
لكنّ المسافة بين قلبيهما كانت أكبر من المسافة بين جسديهما في تلك القاعة.

عندما خرجت ميلار، تبِعَها بنظره فقط، لميتحرّك خطوة، ولم يرفع صوته، ظلّ جالسًا كَحجرٍ يُخفي داخله نارًا هادئة لا يريد لأحد أن يراها.
وحينً اختفت عن بصره...
شعر بأنّ المدينة كلّها تنطفئ. وكأنّ الضوء الذي دخل المكان منذ دقائق كان يأتي منها وحدها.

وقف ببطء، وخرج، ومشى في الطريق نفسه الذي جاءت منه.
كانت خطواته ثقيلة... لكن قلبه كان يركض.

كان يعرف...
أنّ هذه العودة ليست عودة.
بل بدايةُ شيءٍ آخر، شيء لم يكن مستعدًّا له، لكنّه لم يعُد قادرًا على الهروب منه.
ورغم أنّه لم يقل لها كلمةً واحدة، ورغم أنّها لم تلتفت إليه إلا لثانيةٍ واحدة.

بدأت القِصّة!

قصةٌ لا تُشبه أيّ شيءٍ عرفه من قبل. قصة بدأت بنظرة...
وتحوّلت بصمتٍ إلى بدايةٍ لا يعرف أحدٌ نهايتها.

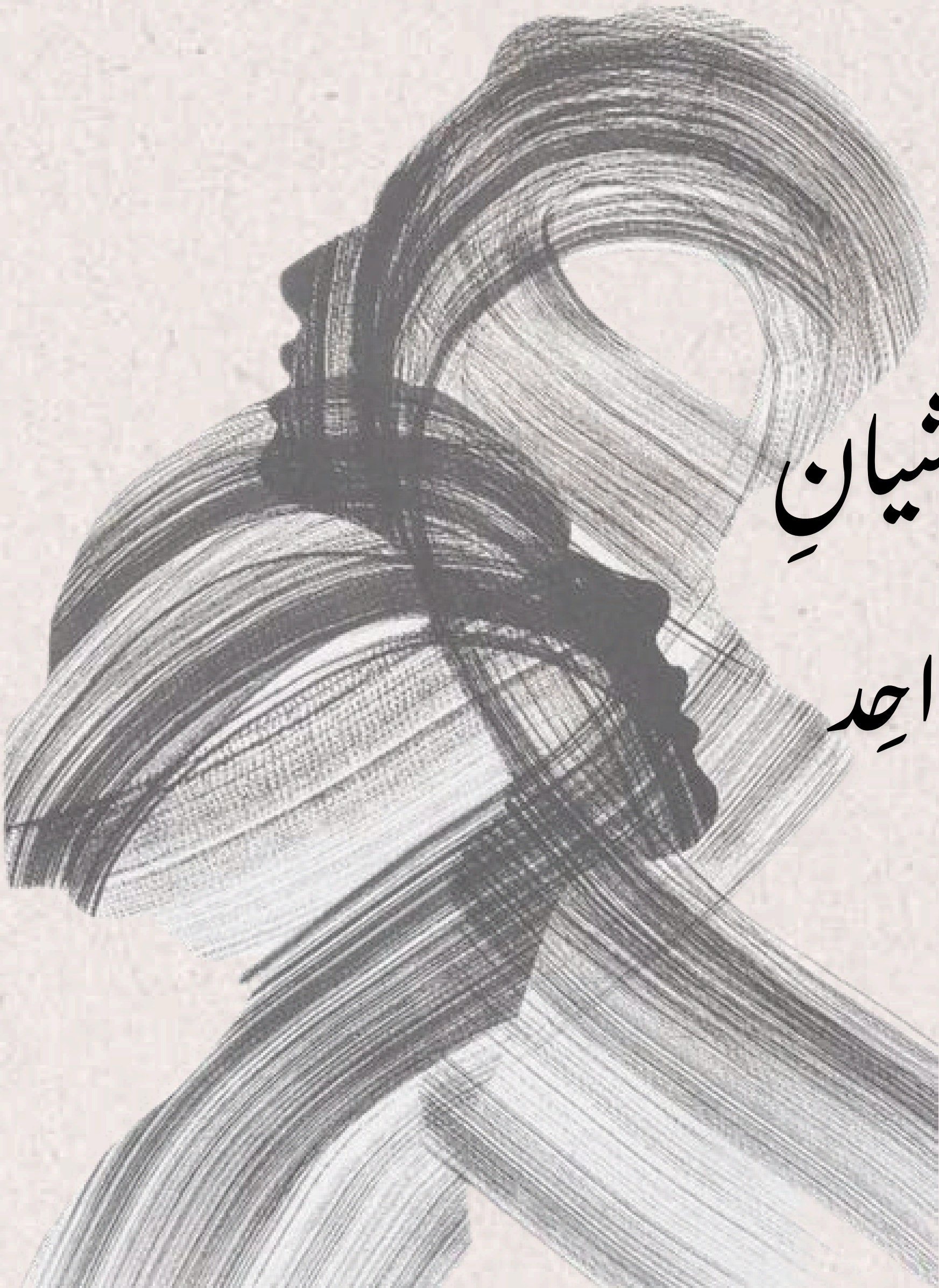

ظِلّانِ يَمشيانِ بِاتّجاهٍ وَاحِد

الفصل الثّاني

ظِلّانِ يَمشيانِ بِاتّجاهٍ وَاحِد

"يَسيران معًا... لكنَّ
القَدرَ لا يلتفتُ خلفه."

كانتِ اللَّيلةُ أثقلَ ممّا تَوقّع رانِيل. عادَ من لقائهِ العابِر بميلار وهو يَحملَ في صدرِهِ ارتِعاشًا لا يعرفُ كيفَ يُسكِته، كانَ اللَّيلُ ساكنًا، والمدينةُ تتناوبُ بين أصواتٍ بعيدة وهدوءٍ يضغطُ على الرّوح ببطء، لم يَكن يريدُ العَودة إلى غرفته، فهُناك فقط يعودُ كلّ شيءٍ ليصبحَ فراغًا.

سار في الشَّوارع القديمة بخُطًى تشبهُ خُطى شخصٍ يبحثُ عن أثرٍ لنفسِه.
كانت الأرصفةُ خاليةً، والضَّوء البرتقاليّ للمصابيح يتكسّرُ على الأرضِ كأنّه يعبرُ عمّا يَشعر به داخلَه، حضورٌ مَكسور، وصمتٌ واضحٌ أكثر ممّا ينبغي.

لم يعرف ما الّذي أشعل القلقَ فيه، هل لأنَّه رآها ؟
أم لأنّ ملامِحها لم تتغيّر ؟
أم لأنّ شيئًا يشبهُ الخوف بدأ يَنشأُ داخله، خوفًا مِن أن تعود الحياةُ لتطالبه بما تركَ خلفَه منذُ سَنوات؟

توقف عند أحد المقاعدِ الصغيرةِ في الحديقةِ القريبة.
جلسَ، وأسندَ رأسهُ إلىَ الخلف، وأغمضَ عينيهِ لحظةً كأنّه يريدُ إيقافَ الزمن، لكنّ ما رآهُ خلف جفونِه لم يكن سِوى عَينيها.
نظرتُها القَصيرة، وذاك الارتباكُ الخفيفُ الّذي ظنّ أنّه لم يُلاحظه أحد... إلّا هو .

تنفّس بعمقٍ وقالَ داخلَ نفسِه :
«لماذا الآنَ ؟
لِماذا هي ؟
ولِماذا أشعرُ بأنّ حياتي القديمة تبعثُ من جديد ؟»

لم تكنِ تلك الأَسئلة هي المُشكلة
بل الإجاباتُ الّتي كان يدركُها ويحاولُ الهروب منها.

في الجهة الأُخرى من المدينة، كانت ميلار تقفُ أمام نافذَتها. اللّيلُ يَتسلّل إلى غرفتِها بخفّة، والبردُ يلمسُ أطراف أصابعها، كانت تُقلبُ كتابًا بين يديها، لا تَقرؤه، بل تَلمس صفحاتِه بحركةٍ بطيئة.

كانت تُحاول إقناعَ نفسِها بأنّ لقاءَه لم يكن أكثر من صُدفة، لكنّ قلبَها لم يُصدّق ذلك.

لماذا شَعرت بتلك الرّجفةِ حين رأتُه؟
لماذا عاد اسمُه ليقفزَ داخلِ رأسها كأنّ السّنوات لم تمرّ؟
ولماذا بدتِ القاعةُ الصغيرةُ أضيق، وكأنّ وجوده وحده أعاد ترتيبَ الهواء؟

وضعتِ الكتابَ جانبًا، شعرت أنّها تحتاجُ أن تجلِس.
تنفّست ببطءٍ وهمست داخِل نفسها:
«إنَّه فقط رانِيل، شَخص من الماضي لا أكثَر.»

لكنّ قلبَها لم يُصدّق ذلك أيضًا.
كانت تعرف أنّه كانَ مُختلِفًا.
الهدوءُ نفسه، النظرةُ نفسها، الصَّمتُ نفسه الّذي يُخفي ما هو أعمق من الكلام.

ومع ذلك، بدا وكأنّه يحملُ داخلَه ثقلًا لم يكن فيه من قبل، كأنَّه غاب آلافَ السنين، لا أعوامًا فقط.

كان شيئًا صغيرًا لكنَّه أربكها، أنّه لم ينظُر إليها طَويلًا، ومع ذلك شعرتْ به، وكأنَّ حضورَه يَختبرُها، يقفُ على الحدودِ القديمة التي اعتقدت أنّها تجاوزتها.

في الصَّباحِ التالي، استيقظ رانيل على إحساسٍ لم يكن يريدُ الاعترافَ به:
رغبةٌ خفيفةٌ في رُؤيتِها، حتّى لو لم يتحدّث إليها.
كان يشعر أنّه يريدُ التأكّد من أنّ اللّقاء لم يكن حُلمًا، وأنَّ وجودَها ما يزالُ حقيقيًا.
حاول إقناعَ نفسِه بأنّه ذاهبٌ فقط ليشتري بعضَ الأشياء، لكنَّه عرَف تمامًا أنّه كاذب، فالطّريقُ الّذي اختارَه لم يكن يؤدّي إلّا إلى مكانٍ واحد.
وحينَ وصل إلى ذلك المبنى القديم، إلى القاعةِ نفسها الّتي شهِدت لِقاء الأمس، شعرَ أنّ قلبهُ يسبقُ خُطاه.

فتح البابَ ببطء!
كانت هناك...
جالسةً هذه المرّة، رأسها مُنحنيٌ قليلًا، تقلّب أوراقًا بين يديها، شعرَ أنّه يقفُ أمام شيءٍ كان يَخشاه ويتمنّاه في الوقت نفسه، توقّفت عيناها عنده للحظةٍ قصيرة، لحظةٍ كانَت كافيةً لجعلِ الهواءِ يثقلُ بينهما من جديد.

بادلته النَّظرة... نظرةٌ لا تشبهُ التَّرحاب، ولا تشبهُ اللامبالاة.
كانت نظرةَ شخصٍ لم يتهيّأ لعودةِ أحدٍ إلى حياتِه، لكنّه لم يستطع تجاهل حضورِه.

قلوبٌ تتقدُهُ مِن الظلال

الفصل الثّالث

وهج رحيل أبدي

قُلوبٌ تُنقِذُهُ مِن الظِّلال

"قُلوبٌ تُضيءُ ما عجزَ عنهُ النُّور."

أمير: صَديقٌ قريبٌ من الرّوح والقلب.
ماريا: فتاةٌ لا يلفتها إلّا أمير.

كانَت قصَّةُ مارِيا وأَمير تَمتدُّ أعمقَ من الحاضِر؛ ولدَت في الطفولة، ونمَت معهما كغصنٍ هادئٍ يَكبرُ دون ضجيج، كَبِرا في الحيّ نفسِه، يَسيرانِ كلَّ صباحٍ في الطّريق ذاتِها إلى المَدرسة. كانت مارِيا تَخطو بخفر، فيما يحاوِلُ أَمير أن يبدوَ قويًّا وهو يخفي ارتباكَ نظراتِه نَحوها، وبابتسامةٍ خَجولةٍ صغيرة، كانت تُربِكه كلَّ يومٍ من جَديد.

ومع الأَيّام، صار كلٌّ منهما يحملُ في قلبِه معرفةً لا يمتلكها أحدٌ غَيرُه، كانت مارِيا تَعرِف أنّ أَمير يغضبُ بسرعة ويهدَأ إلّا إذا صُغيَ إليها، وكانَ أَمير يعرِفَ أنَّ مارِيا تَبكي صمتًا، وأنّ قلبَها لا يشتكي لأحد.

تَبادلا الأوراقَ الصغيرة في المَدرسة، رسائل تُهرّب أسرارًا طفوليّةً لا تحملُ إلّا صدقًا.

وحينِ دخلا المَراهقة، تَبدّلت النّظراتُ دون أن تتبدَّل الأرواح.
كان أَمير يَبحث عنها بين الوجوه، وتَحفظ هي صوته بين ضَجيجِ الطلّاب، صار يَحميها دونَ أن يُطلَبَ منه، وصارَت تَطمئنُّ حين يَكونُ بقُربِها، وكأنَّ وجودَه يجعلُ العالم أقلّ قسوة.

ومع الجامعة، لم يبتعِدا كما ظنّ النّاس؛ بَل اقتَرَبا أكثَر.
كان يحضّر لها ملخّصاتِ المَحاضرات، ويُرافِقُها هو إلى المَكتبة، ويَحجزِ لها مقعدَها المُفَضل بجانبِ النّافذة، صارت التفاصيلُ الصغيرة تنسجُ علاقةً أكبر من كلّ ما يُقَال.

وفي إحدى أمسياتِ الشّتاء فوق سَطحِ أحد المكاتب، قال لها أَمير بِنبرةٍ مُرتجِفة:
«مَارِيا...
لا أعرِفُ متى أحبَبتكِ، ولكنّي أعرِفُ أني لا أستطيعُ الرّجوعَ قبل هذه اللَّحظة.»
ارتبكت وضَحكت، ومسحت دمعةً نزلَت بلا استِئذان، ثمّ وضعت يدها فوق يده، اعترافًا صامتًا أقوى من أيّ كلمة.
ومع السَّنين، صارت مارِيا عَقلَ أَمير حين يَضيع، وصار هو قَلبها حين تَخاف.
نضجَ الحُبّ بَهدوء، حتّى جاءَ اليومُ الّذي جَمعهُما رسميًّا.

حفلُ الخطبة الّذي أقامَه أَمير كانَ أكبرَ ممّا توقّع الجَميع.
امتلَأت القاعةُ بِأضواءٍ ذهبيّةٍ ناعمةٍ تتدَلّى كنجومٍ صغيرة، الجدرانُ مزينةٌ بورودٍ حمراء، والطاولاتُ تَلمعُ كأنّه تباركُ الحلمَ الذي كَبِر معهما. وحين دخلت مارِيا بفُستانها العاجيّ الهادِئ، أحسَّ أَمير أنّ الطفولةَ كلّها تعودُ إليه في خُطوةٍ واحدة.
تقدّم نحوها، وأمسكَ يدها، وقالَ بنبرةٍ يختلط فيها الفرحُ بالرَّهبة:
«مَارِيا...
كُنتِ قلبي منذُ الطُّفولة... فهل تقبلين أن تكوني عُمري أيضًا؟»
ابتسمت، وهزّت رأسَها بالخجل، وقالَت بصوتٍ مُرتعِش:
«كنتُ أعرِفُ أننا سنَصلُ إلى هذا اليوم.»
ارتفع التَّصفيق، وامتلأت القاعةُ بضحكاتٍ دافِئة، وبدَت الدُّنيا وكأنّها تحتفل بهِما.

وفي زاويةٍ بعيدة، كان رانِيل يراقِبُ الحدث بقلبٍ مَشحونٍ بمزيجٍ من السَّعادة والحنين.
أحبَّ أن يرى الحبّ يكتمل أمامه، لكنَّ شيئًا آخر لفتَ انتباهه، كانَ رَجل غريب يقفُ قُربَ الباب، ويُحدّق نحو رانِيل، لا نحو العروسين. نظرةٌ غريبة، ثابتة، حادّة، كأنّه يعَرفُه، أو يعرف ماضيَه.
ومَرّ في قلب رانِيل خيالٌ واحد:
«هل لهُ صلةٌ بميلار؟
هل ليسَ هذا اللّقاءُ مجرد صُدفة؟»

كانَ الغموض يمتدّد في رأسِه، وكأنَّ هذا الرجل أصبحَ جسرًا خفيًّا يربط الحاضر بما ينتظره، شيئًا يتحركُ في الظِّلال، يقترب منه أكثر ممّا يظنّ.

في صباحٍ جامعي، كانَ المقهى يعجُّ بهمهمةٍ خفيفة تُشبهُ موسيقى لا ينتبهُ إليها أحد، لكنَّ رانِيل كان يَشعرُ بها كأنها جزءٌ من نَبضه. جلسَ في ركنه المعتاد قربَ النّافذة، يحاولُ أن يلتقطَ سكينةً ضائعة، قبل أن يُفاجئه صوتٌ دافئ يعرِفُه جيّدًا.

«مُشتاق يا رجل.»

قالها أَمير وهو يربّت على كتفه ويجلس قبالته.

توسَّعت ابتسامة رانِيل قليلًا :

«وأنا أكثر، شعرتُ أنَّ هذا اللقاء تأخَّر كثيرًا.»

كانت صداقة رانِيل وأَمير تمتدُّ لأكثر من عشر سنوات. علاقةٌ بدأَتْ بلقاءٍ عابر في أحد الصفوف، ثم تحوّلت مع الوقت إلى رابطٍ من الصِّدق لا يتحمّل الزّيف، وكأنَّ كلًّا منهما يعرفُ الطريق إلى قلب الآخر بلا عناء.

دخلت مارِيا بعد لحظات، بخُطاها المتزنة وابتسامتها التي تُشعر الجالس بقربها بأنّ الحياة أكثر احتمالًا.

كانت تعرف رانِيل منذ طفولتها مع أَمير، حيث تربّيا معًا في الحيّ ذاته، على أرصفةٍ حفرت الشمسُ عليها خُطوطها، وفي حدائق صغيرة احتضنت أسرارهم الأولى.

جلست بقرب خطيبها، وقالت بلطف :
«رانِيل...
تغيرت قليلًا، لكن عينيك ما زالتا تُشبهان ذلك الذي يكتب ليقسو على نفسه.»
ابتسم بخجل:
«وأنتِ ما زلتِ تخفين الحبّ لأمير أكثر ممّا تُظهرينه.»
ضحكَ أَمير وهو يرفع فنجان القهوة:
«وهذه إحدى مصائبنا نحن الاثنين، أن مارِيا تفهم قبل أن نشرح.»
رفعت مارِيا حاجبها بخفّة:
«مصائب؟ هكذا إذن؟»

ضحكَ الثلاثة، وكأنّ الضحكة الأولى منذ عودته قد وُلدت الآن.
ومع أن رانِيل كان يعرفُ قصّة حُبّهما، إلّا أنّه أحبَّ أن يسمعها من جديد، بطريقتها التي تُعيد كلَّ شيء إلى الحياة.

قال أَمير وهو ينظر إلى يد مارِيا:
«نحن بدأنا من الطفولة. كنّا نهرب من المدرسة لنشتري بوظة، ونتشاجر على من سيجلس على الأرجوحة أولًا وبعدها كبرنا، وكبرت معنا تلك السخافات الجميلة.»

أكملت مارِيا بابتسامة هادئة:
«وعندما أصبحنا في الجامعة، كان الجميع يسأل لماذا لم نتخطب بعد، حتى نحن كنّا نضحك، كنّا نعرف أنّ الوقت قادم فقط انتظرنا اللحظة التي نشعر فيها أنّ القلوب نضجت بما يكفي.»
هزّ أَمير رأسه موافقًا:
«وفي هذا العام كانت اللحظة، حفلٌ كبير، كلُّ من نحب كانوا هناك...»

ساد صمتٌ خفيف، كان ذلك زمنَ غربة رانِيل، زمنَ انطفاءِ صوته.
قال بصوت خافت:
«كنتُ معكما بطريقةٍ ما، كنتُ أعرف أنّك ستصل إليها أنّكما ستكملان الطريق معًا، وهذا أسعدني كثيرًا.»

انحنى أَمير قليلًا للأمام وسأل بجدّية يعرفها رانِيل:
«وأنت؟
أخبرني ماذا حدث بينك وبين مِيلار؟»

تجمَّد الهواء حول رانِيل لحظةً.
كانت تلك النّقطة التي تهرب منها روحه كلَّ ليلة.
أجاب بعد تنهيدة طويلة:
«لا شيء، أوكل شيء.
رأيتُها قبل أيّام، ثم ظهر رجلٌ غريب أعرفه، لم أره منذ سنوات، ولا أفهم لماذا ظهر الآن، ولا لماذا ظهر معها تحديدًا.»
تبادلت مارِيا وأَمير نظرةً صامتة مليئة بالأسئلة.

قالت مارِيا:
«وهل شعرتَ أنّه يعرفك؟»
«بل يعرفني أكثر ممّا يجب.»
ثم أضاف بصوت خافت:
«الأمر يشبه بابًا لم أرد فتحه، لكنّه انفتح وحده.»

وضع أَمير يدَه على يد صديقه بثبات:
«أيًّا كان هذا الرجل، وأيًّا كانت علاقتُه بمِيلار، لن تواجه هذا وحدك، نحن هنا.»

وأضافت مارِيا بابتسامة مطمئنة:
«وأحيانًا، ظهور الغرباء ليس صدفة، رُبّما يستعدّ القدَر لربط شيء أكبر مما نتصور.»

ارتشف رانِيل قهوته وقد شعر للمرّة الأولى منذ عودته أن قلبه يتنفّس.

كان يعرف أنّ طريقه مع مِيلار لم ينتهِ، وأنّ الرجل الغريب سيعود ليحمل معه شيئًا لم يُكشَف بعد.

وكان يعرف كذلك، أنّ أَمير ومارِيا هما الضوء الوحيد القادر على أن يُنقذه كلّما غرق في عتمته.

كانت الأمسية تُمهّد لبداية طريق جديد، طريق سيأخذهم مباشرةً نحو الفصل الّذي ينتظر، الفصل الّذي سيغيّر كلَّ شيء.

سَنَواتٌ تَذُوبُ بِيُطْءٍ

الفصل الرَّابع

وهج رحيل أبدي

سَنَواتٌ تَذُوبُ بِبُطْءٍ

"الأيامُ تمرّ، وما نُسقطه يبقى معنا."

لارين: الفتاةُ التي لا تشبه الآخرين.

في سنواتِ الدراسة الّي مرَّت، كانت هناك شخصياتٌ عدّة دخلت حياةَ رانِيلَ، بعضها تركَ أثرًا عميقًا، وبعضها كان مجرّد عابرِ سبيل، ولكن لم يكن هناك من أثَّر فيه كما فعلت لارين.

لم تكن الفتاةَ التي يراها الجميع، ولم تكن تلك التي تحاول أن تلفت الانتباهَ إليها.
كانت بسيطةً، في ملامحها وفي طريقتها في الحياة، لكن في قلبِها كان عالمٌ عميقٌ ومليءٌ بالأسرار.
لارين كانت مختلفةً.
كانت تتمتّع بصمتٍ هادئٍ له سحره الخاص، عيونها كانت مليئةً بالذكاءِ والصدق، وعندما كانت تتحدَّث، كانت كلماتها تنبعُ من قلبٍ صادقٍ وعميق، لم تكن بحاجةٍ للكلماتِ لتُحدِثَ فرقًا، فقط حضورُها كان كافيًا ليشعرَ رانِيل بأنّها أكثرُ من مَجرَّد صديقةٍ؛ كانت ضوءًا في عتمته، بل كانت أحيانًا المنقذة له.

مرتِ السنواتُ، ومع كلِّ عامٍ كانت العلاقةُ بين رانِيل ولارين تزدادُ قوةً.
أصبحا أكثرَ من مجرَّد زميلين في الدراسة، أصبحا صديقين مقربين يتبادلان الأحاديثَ، يتناقشان في كلِّ شيءٍ، حتى الأمورَ البسيطةَ الّتي لا يتطرق إليها الآخرون.

في كثيرٍ من الأحيان، كان يفتحُ قلبه لها عن مشاعره تجاه مِيلار، وهو يعلمُ أنّها الوحيدةُ الّتي يمكنُ أن تفهمه.

كانت تنتمي إلى نوعِ الأشخاصِ الذين لا يظهرون كلَّ شيءٍ عن أنفسهم دفعةً واحدة، كان لديها طريقةٌ خاصةٌ لفهم الآخرين دون أن تُعبِّر عن ذلك، كما لو كانت تتقنُ فنَّ الاستماعِ الّذي يفضي إلى العنايةِ بالروح.
لذلك، عندما بدأ رانِيل يشعر بتلك الفجوةِ الكبيرةِ في قلبه بسبب عدمِ قدرتهِ على التقدُّمِ في علاقته مع مِيلار، كانت لارين هي الملجأ الوحيد الّذي يلجأُ إليه.

كانا يجلسان معًا في فتراتِ الراحةِ بين المحاضرات، يتناولان القهوةَ في الزوايا الهادئة. كانت لارين تستمع له بصمت، لكن في كلِّ مرةٍ كانت تعطيه كلماتٍ تشعره بأنّ هناك شيئًا أكبرً من تلك اللحظاتِ المؤلمةِ الّتي يعيشها.

لارين:
"أنتَ لا تحتاجُ أن تعيشَ حياتك في ظلِّ الآخرين، رانِيل. أحيانًا يمكننا أن نكتشفَ أشياءَ جديدةً في أنفسنا عندما نبتعدُ عن الأشياءِ الّتي نعتقدُ أننا بحاجةٍ إليها."

وفي كلِّ مرةٍ كانت تتحدَّث فيها، كان يشعرُ وكأنَّ تلك الكلمات تخترقُ قلبه وتُخفِّفُ من ألمه، لكنّه كان يعلمُ أن الحديثَ عن مِيلار سيظلُّ يشغله مهما حاولَ التوقف عن التفكيرِ بها.

في مرةٍ أخرى، قالَ لها رانيل:
"أحيانًا أشعرُ بأنّني أضيعُ حياتي، أركضُ وراء شيءٍ لن يحدثَ أبدًا، أحبُّ مِيلار، لكنّني لا أستطيعُ أن أجعلها ترى ما أراه.
والآن، أفكرُ في أنّني لا أستطيعُ أن أكونَ الشخصَ الّذي أريدُ أن أكونه."

لارين بهدوء، وكأنّها تلمس عمق قلبه:
"ربما أنتَ لا تحتاجُ أن تكونَ الشخصَ الّذي تتوقعه، أنتَ فقط بحاجةٍ إلى أن تكونَ نفسك، ومتى ستدركُ أن مِيلار ليست سببَ حزنك؟
بل أحيانًا يكون الحزنُ شيئًا يأتي من داخلنا، مما لا نريدُ أن نواجهه في أنفسنا."

كانت هذه الكلمات بمثابةِ رياحٍ تهبُّ على قلبه، لكن رغمَ ذلك، لم يكن يستطيعُ التخلصَ من شعورهِ بالضياع.

لقد كانت مِيلار تلك الفتاةَ التي أصبحت مركزَ العالم بالنسبةِ له، وعلاقتهُ بها كانت مليئةً بالمواقفِ الّتي تحمل بين طياتها الحبَّ والخوفَ والفقد.

كان يحاولُ أن يثبتَ لها أن حبهُ صادقٌ، لكن دائمًا ما كانت تصطدمُ تلك المحاولاتُ بصمتِها أو برفضِها الضمني.
كان يلاحظُ أنها كانت تبتعدُ شيئًا فشيئًا، وأحيانًا كانت تجاملُ، لكن قلبَها لم يكن هنا، لم يكن في هذا المكانِ الذي أراده لها.
كان يقدمُ لها ما يستطيعُ، ولا يأخذُ منها إلا صَمتًا، وفي كثيرٍ من الأحيانِ كان ذلك الصمتُ أبلغَ من أيِّ كلماتٍ قد تقال.
في تلكَ الأيام، وبينما كان يسيرُ في الحياةِ بتلك الخطواتِ المثقلةِ، كانت لارين هناك دائمًا، لم يكن يعرفُ كيف سيبقى على قيدِ الحياةِ لو لم تكن هي تلك الصديقةَ التي تلطفُ قلبه بين حينٍ وآخر.
لارين بابتسامةٍ هادئة:
"أنتَ تستحقُّ أكثرَ من هذا، رانِيل...
لا تجعل حبّك لمِيلار يصبح عبئًا على قلبك، في النهاية، الحبُّ الحقيقيُّ لا يكونُ في الانتظارِ، بل في القدرةِ على المضي قدمًا."

وفي إحدى الليالي الممطرةِ، حيث كانا يجلسان في نفسِ المقهى المعتاد، قرر رانِيل أن يفتحَ قلبه أكثر. كان يشعرُ أنه قد أفرغَ الكثيرَ من نفسهِ أمامها. لكنّه الآن بحاجةٍ إلى أن يرويَ لها ما لم يقله لأيِّ شخصٍ آخر من قبل.

رانيل:
"أنتِ تعرفين كل شيءٍ عني، ولكن هناك شيئًا لم أخبرك به من قبل
أحببتُ مِيلار منذ أن كنتُ في الثانوية.
لم يكن حبًا عاديًا، كان حبًا يجعلني أشعرُ أنّي أعيشُ من أجلها،
لكنني كنتُ أعلم دائمًا أنّني لا أستطيعُ أن أكونَ الشخصَ الذي
تراه مناسبًا."

أخذت لارين نفسًا عميقًا قبل أن تردّ:
"أعلمُ، رانِيل. لكنك لا تستطيعُ أن تجعلَ شخصًا يحبك بأيِّ ثمن
يجبُ أن تأتيَ المحبةُ من الطرفين.
وأحيانًا، من أجل أن تريحَ قلبك، عليك أن تتركَ المكانَ للآخرين
ليدركوا قيمتك."

قالت هذه الكلماتَ بصدقٍ عميق
ورغمَ أن رانِيل شعرَ أنّها محقة، إلا أن الكلماتِ لم تكن قادرةً
على تهدئة الوجع في قلبه.

وها قد جاءَ يومُ التخرج، كان يومًا مليئًا بالمشاعرِ المتناقضةِ، مشاعرِ الفخرِ بالإنجاز، ولكن أيضًا مشاعرِ الخيبة.

رانيل ينظر إلى صديقه أمير:
"لقد تخرجنا، ولكنّ لا أشعرُ بالسعادة. هذا ليس الطريقَ الّذي حلمتُ به."

أجاب أمير مبتسمًا، لكنّه كان يعلمُ أن صديقه كان يعاني:
"أنتَ لا تزالُ في البداية، رانِيل، المستقبلُ أمامك."

لكن في أعماقه، كان رانِيل يعلمُ أنه لن يكون كما كان يحلم.
كان حلمه أن يصبح جراحًا للقلب، وكان يعتقدُ أنّه سيحقق ذلك الحلم يومًا ما.
كان يرى نفسه وهو يقف أمام طاولة العمليات، يعالج المرضى، ينقذ الأرواح .
كان يرى في نفسه الشجاعة والعزيمة لمواجهة الظروف، ليكون جراحًا مرموقًا في أكبر المستشفيات .
كان يعتبر أن الجراحة هي الميدان الّذي يليق به، مكانه الذي سيصنع فيه الفارق.
كلما نظر إلى حياته الحالية، شعر بأنّ شيئًا مهمًا قد ضاع.

شعر وكأنّ حلمه قد تفكك أمامه، وأنّه دخل إلى مكان لم يكن يريده.
فبينما كان يخطو خطوات نحو كلية الهندسة، كان قلبه يغرق في الحزن، وكان يتمنى أن يعود الزمن ليُحقِّق حلمه القديم.

وفي أحد الأيام، جلسا في زاوية صغيرة من المقهى الجامعي، حيث كان صوت الموسيقى الهادئة ينساب في الأجواء.
رانيل نظر إلى فنجان قهوته، كأنّه يبحث عن جواب في قعره، بينما كانت لارين تراقب صمته بعينين هادئتين، تعرفُ أنّه يمرّ بمرحلة صعبة.

بعد لحظة من السكوت، فكَّ رانيل حاجز الصمت وقال بصوت منخفض:
رانيل:
"أحيانًا، أشعر أنّني عالقٌ، عالق بين عالمين.
لا أستطيع المضي قدمًا، ولا أستطيع العودة.

"لارين بهدوء:
"أنتَ لا تزالُ متمسّكًا بماضيك، رانِيل... أعتقد أن المشكلة ليست في المكان الّذي أنتَ فيه الآن، بل في المكان الّذي لا تزال تتمنى أن تكون فيه."

تنهد رانيل وأخذ رشفة من قهوته، ثم قال وهو ينظر بعيدًا:
"كل شيء كان مختلفًا عندما كنتُ أرى نفسي كطبيب، كان لدي هدف، كان لدي حلم. والآن أشعر أنّني ضعت بين الخيارات، بين ما كنتُ أريد أن أكونه وما أصبحته."
لارين بتفكير عميق:
"لكن ماذا لو كان هذا هو الطريق الّذي كان عليك أن تسلكه؟ ماذا لو كان هذا هو الطريق الذي سيجعلك تنضج وتفهم نفسك أكثر ؟"

رانيل نظر إليها بعينين شاردتين، ثم قال :
"لا أريد أن أكون شخصًا عاديًا، لارين... حلمي كان أن أصبح جراح قلب كنتُ أرى نفسي وأنا أنقذ الأرواح.
ولكن الآن؟
الآن أنا هنا، في كلية الهندسة، وهو شيء لا أشعر أنّه ينتمي إلي."

لارين بتفهم :
"ربما كان حلمك هو جراحة القلب، لكنني أعتقد أن قلبك هو الّذي كان يحتاج إلى العلاج، لا أعتقد أنّ المشكلة في الهندسة، بل في كيف ترى نفسك.
هل حلمك كان مرتبطًا بما تفعله، أم بما تكونه ؟"

رانيل فكر في كلماتها للحظة، ثم قال بصوت هادئ :
"أعتقد أن حلمي كان مرتبطًا بما أفعله
كنتُ أريد أن أترك أثرًا، أن أكون مهمًا في حياة الآخرين."
لارين بابتسامة هادئة:
"وربما هذا ما يجعل الحزن يلاحقك، لأنّك تضع قيمتك في ما تفعله، وليس في من تكون. أنت أكثر من مجرد أطباء أو مهندسين أنت إنسان قادر على التغيير، على التأثير في الحياة من خلال أيّ شيء تختار أن تفعله."
رفع رانيل عينيه إليها ببطء، وكانت عينيه تلمعان بشيء من الفهم.

رانيل بشكر خافت:
"أنتِ دائمًا تعرفين كيف تجعلينني أرى الأشياء من زاوية مختلفة."

لارين بابتسامة رقيقة:
"ربما لأنّني أراها من زاويتك، لا يمكنك أن تبنى حياتك على ما كان، أو على ما كنت تظن أنّه كان يجب أن يكون.
كلّ لحظة هي بداية جديدة، ورحلة جديدة."

رانيل أمسك بفنجانه، لكن قلبه كان أخف قليلاً.
"أعتقد أنّني بحاجة إلى التوقف عن مقارنة نفسي بما كنتُ عليه، وأن أقبل بما أنا عليه الآن."

لارين بصدق:
"بالضبط. لأنّك أكثر قوة مما تعتقد، وأكثر صدقًا مما يدركه الآخرون.
وأنت تستحق أن تجد طريقك في الحياة، بغض النظر عن الشكل الّذي يأخذه هذا الطريق."

رانيل نظر إليها بشكر، ثم قال:
"أنا ممتن لكِ، أحيانًا أشعر أنّني ضائع، لكن وجودك هنا يجعلني أشعر أنني أستَطيع المضي قدمًا."

لارين بابتسامة دافئة:
"أنا هنا دائمًا من أجلك، رانِيل...
لا تخف من أن تكون ضعيفًا، فحتّى الضعف أحيانًا يكون القوّة الحقيقية."

ابتسم رانيل بشكل خفيف، وكأن شيئًا قد تغير داخله.
كانت كلمات لارين قد وضعت بعض الأشياء في مكانها الصحيح. ربما لم يكن يعلم بعد ما الّذي يريده، لكنّه كان يعلم أنّه لم يعد وحيدًا في هذا الطريق.

مَسارُ يَتَشعب في الظلال

الفصل الخامس

مَسارٌ يَتَشَعَّبُ في الظِّلال

"الطريق يتفرّع، والرّوحُ
تتوه بين الأسرار"

رانِيل بين وجوهٍ تتغيّر وقلبٍ لا يتغيّر.

لم يكن ذلك الصباح مختلفًا عن غيره، لكن شيئًا غير مرئي كان يثقّل الهواء في غرفة رانيل.
بدا كأنّ الشمس تتردّد قبل أن تصعد، وكأنّ الضوء نفسه يعيد التفكير قبل أن يلمس نوافذ بيته القديم.
وقف عند الشرفة، ينظر إلى الشارع الخالي تقريبًا، يحاول أن يفهم سبب ذلك الثقل الّذي يسكن صدره منذ أيام.
لقد تغيّر كلّ شيء من حوله، إلّا داخله.

كان يقول في سره:
«لماذا كلّما حاولت أن أبدأ، أعود إلى النقطة الّتي هربت منها؟»
أمسك بدفتر قديم، مغطّى بالغبار، فتحه، فإذا به يجد خطوطه العتيقة، كلمات كتبها وهو في الغربة، مرتعشًا ومتعبًا ومجهدًا.
صفحات ممزّقة، رسائل لم تُرسل، أبيات ناقصة، وجمل توقّف فيها كأنّه لم يجد الشجاعة ليكمل.

قرأ بصوت خافت:
«ما أصعب أن يسير الإنسان وهو يجُرّ ذكرى لا تموت.»

شعر أن العبارة تشبهه أكثر مما تشبه ذلك الشاب الّذي كتبها سنوات مضت.

في المساء، اتّصل به أمير. كان صوته يحمل قلقًا واضحًا.
- «رانيل... أين اختفيت؟ لم أرك منذ أيام.»
- «أنا هنا... فقط أحاول أن أرتّب شيئًا ما داخلي.»
- «داخلِك ؟»
ضحك أمير ضحكة قصيرة،
«أنت تخيفني حين تقول هذا.»

تردّد رانيل قليلًا، ثم قال بصوت منخفض:
- «أشعر أنّني عالقٌ يا أمير، بين ما كان وما يجب أن يكون.»
صمت أمير لحظة، ثم قال بجدّية:
- «هل الأمر له علاقة بميلار ؟»

ارتجفت أنفاس رانيل.
لم يرِد الاعتراف، لكن الحقيقة كانت تزدحم في صدره.

- «كلّ شيء في حياتي يعود إليها، شاء قلبي أم أبى.»
- «وما الّذي تريده أنت ؟»
- «أريد أن أتوقف عن الألم، هذا كلّ ما أريده.»

في اليوم التالي، ذهب رانيل إلى الجامعة.
الممرات الّتي كان يمشي فيها قبل سنوات، رائحة الكتب القديمة، أصوات الطلاب، كلّما أعادت إليه مشاهد لم يرد تذكّرها، لكنّه لم يستطع الفرار منها.
دخل المكتبة.
كان المكان هادئًا جدًّا، والضوء ينعكس على الطاولات الخشبيّة بلمعة دافئة.
وبينما هو يبحث عن كتاب ما، سمع صوتًا ناعمًا خلفه:
- «رانيل؟ أنت هنا؟»
التفت... وكانت لارين.
فتاة طالما حملت في قلبها رقة تُشبه المطر، وهدوءًا يسبق العاصفة.
ابتسمت له، ثم قالت:
- «لم أرك منذ مدة، ظننت أنّك اختفيت مرّة أخرى.»
- «لا، فقط كنت مشغولًا قليلًا.»
- «أعرف هذا النوع من الانشغال، انشغال لا يراه أحد، لكنّه يأكل صاحبه من الداخل.»

نظر إليها بدهشة.
لارين كانت تجيد قراءة الصمت أكثر من قراءة الكلمات.
اقتربت قليلًا وقالت بصوت منخفض:
ـ «هل هناك شيء يؤذيك؟»

تردّد، أراد أن يقول لها الحقيقة، لكنّه لم يفعل.
بل قال:
ـ «مجرد أفكار.»
ـ «الأفكار الّتي تُرهق العينين قبل القلب؟»
ـ «رُبّما...»

جلست معه على الطاولة.
وضع كتبها جانبًا، ثم قالت:
ـ «رانيل... أنت تشبه شخصًا يريد أن يركض، لكنّه مقيد بسلاسل لا يراها أحد.»
ـ «وما العمل؟»
ـ «تتحدث... أو تطلق ما في داخلك، الهروب لم يعد يشبهك.»

ساد صمت طويل.
كان ينظر إلى يديه، كأنّه يبحث فيهما عن إجابة ضائعة.

ثم قال دون أن يرفع رأسه:
ـ «لارين... هل تظنين أنّ الإنسان يستطيع أن يتحرّر من شيء يسكن قلبه منذ سنوات؟»
ـ «إذا أراد... نعم.»
ـ «وإن لم يسقط الحبّ؟»
ـ «حينها، يسقط الإنسان نفسه.»غص صدره بكلماتها.
كأنّها أصابت الموضع الّذي كان يخشى الاعتراف بوجوده.

قبل الغروب، جلس رانيل مع أمير في مقهى مطلّ على شارع مزدحم.
أمير، وهو يحرّك فنجان القهوة:
ـ «لدي فكرة، لماذا لا تسافر قليلًا؟ تغيّر الجوّ، تنعش عقلك، تنسى...»
ضحك رانيل ضحكة باهتة:
ـ «أمير... أنا سافرت سنوات، لو كان السفر يعالج شيئًا، لعدت رجلاً جديدًا.»
ـ «إذًا...؟ ماذا تريد أن تفعل؟»
ـ «أريد أن أفهم نفسي، أن أتوقف عن التظاهر أن كلّ شيء على ما يرام.»
ـ «وهل ليس كذلك؟»
ـ «لا، ليس كذلك أبدًا.»

أمسك أمير بكتفيه وقال:
ـ «اسمعني جيدًا... أنت أقوى مما تظنّ، فقط توقف عن محاربة شيء لا يُحارب.»
ـ «ما هو؟»
ـ «الشعور.»
ـ «وكيف أتوقف؟»
ـ «بالاعتراف، بالقبول، وبأن تسمح لقلبك أن يتنفّس.»ارتفعت أنفاس رانيل، كأنّه يسمع شيئًا خطيرًا للمرة الأولى.
ـ «وإن اختنق قلبي يا أمير؟»
ـ «عندها، سأكون هنا لأحمله معك.»

عاد رانيل إلى بيته ليلًا. أضاء مصباحه الأصفر، ونظر إلى الغرفة الّتي عرفته مهزومًا وواقفًا ومنهارًا ومتماسكًا في الوقت نفسه.

جلس على الأرض.
وأخذ يكتب.
كتب كثيرًا...
كتب عن ميلار، عن ألمه، عن صمته، عن نفسه.
كتب حتى اهتزّت أنفاسه. وحين انتهى، رفع رأسه وقال لنفسه بصوت خافت يكاد لا يُسمع :«رُبّما آن الوقت أن أبدأ من جديد، ولو خطوة واحدة.»

مرّت الأيام بثقلٍ يكاد يخنق قلبه، وفجأةً وصلت له رسالة من أحد الأصدقاء كان مضمونها ..!

رانيل...
غدًا سيُفتح مركزٌ جديد يقدم الكثير من ورشات عملٍ ضمن المجال الطبيّ، ويُدرّس التمريض بجميع أفكاره.
إنّها فرصتك لدخول عالم الطب كما كنت تحلم، ولو بقليل.

ابتسمت رانيل عند قراءة هذه الرسالة وشكر صاحبه عليها.
ثم همس لنفسه قائلًا:
رُبّما هذه الخطوة الّتي انتظرها من جديد، سأذهب لأُعيد ترتيب الفوضى الّتي حدثت بداخلي مُؤخرًا.

لكنّه لم يعرف أن تلك الخطوة الصغيرة ستفتح بابًا لقدر لم يكن يتوقعه.

طَرِيقُ يَطوي

صَدَاهُ الأَخِير

الفصل السادس

طَرِيقٌ يَطوي صَدَاهُ الأَخِير

" دربٌ يُسدل، وتبقى الذكرى وحيدة."

كان صباح ذلك اليوم يحمل هدوءًا مترددًا، هدوءًا لم يعتده رانيل منذ عودته من الغربة، لو ألقى أحدهم نظرةً عليه في تلك اللحظة لرآه واقفًا أمام بوابة المعهد، يمسك حقيبته بيد متجمدة، وكأنّه يتحسس مصيرًا لا يزال يرفض الاقتراب منه.

قبل أن يتقدم خطوة إلى الداخل، لمح مجموعة من الطلاب يتجادلون قرب الساحة.بدا الخلاف بسيطًا، لكنّه جذب انتباهه رغمًا عنه. أحدهم كان يصرخ ويتهم الآخر بسرقة بحثه، بينما الثالث يحاول تهدئة الموقف.

ثوقف رانيل بضع ثوانٍ يراقب المشهد بصمت، غير مدرك لماذا شعر بأنّ هذا العام سيحمل اضطرابات صغيرة تتكرر، لم يتوقف، فقط تابع طريقه وكأنّ شيئًا ما ينذر بأنّ الهدوء الظاهر ليس هدوءًا كاملًا.

تنفس عميقًا، وارتفع صدره لوهلة ثم أعاد الهواء إلى داخله كأنّه يعيد نفسه إلى الدنيا همس لنفسه:

"اللَّهُمَّ لطفك بي."

كان يخشى، لا من المعهد، بل من الوجوه الّتي سيراها الماضي الّذي سيصله بالآتي وميلار، الّتي ستمر قريبًا، وتوقظ غصة يحملها منذ أعوام.

حين دخل رانيل إلى ممر المعهد، أحس أن كلّ شيء ينتظره، كأنّ الزمن في هذه البقاع جلس مترقبًا لوصوله.

رُويدًا... رُويدًا...
ارتفعت همسات ضئيلة، ونظرات متقطعة تتجول في هيبته الغريبة عن المكان.
"أهذا هو الطالب الجديد؟ يبدو هادئًا أكثر من اللازم"

لم يعر الانتباه لأحد، لم يكن يقدر على ذلك أصلًا، كانت روحه منهكة، كثيرة الشرود، مثقلة بحب يسير داخله كما يسير الدم في العروق دون توقف.

وبينما يسير، وقفت داخله خطوة لم يظهرها
صوت عرفه منذ أول نظرة، صوت يشبه رقة خريف يتساقط بأدب.

"رانيل...؟"

تجمد كلّ شيء داخله. التفت ببطء، وكأنّه يخشى أن تكون خيالًا أو وهمًا من آلامه القديمة.

كانت ميلار واقفة أمامه، تحمل كتبًا بيدها، وشعرها ينسدل بهدوء على كتفيها، وعيناها تشعلان داخله شيئًا نسي كيف يُطفئه.

قالت بنبرة خفية:
"لم أتوقع أن أراك هنا في المعهد."

أجاب بصوت مرتجف:
"ولا أنا لكني حاولت أن أختار طريقًا جديدًا."

ابتسمت ابتسامة حذرة، كأنّها تخاف أن تطيل النظر إليه فيتغير داخله، لكن الحقيقة أن داخله تغيّر منذ وقفت أمامه، مجرد وجودها يحرك البحار الّتي يتظاهر أنّه نسيها.

بعد أن غادرت ميلار الممر، تعالت الأصوات فجأة في الجهة الأخرى.
كان شجارًا يدفع فيه طالب آخر بعنف، فسقط كتابه أرضًا، لم يكن رانيل يريد التدخل، لكن قدميه تقدمتا وحدهما.

وقف بينهما وأوقف الشجار بصمت.
نظر إليه أحدهم بحدة وقال:
"أنت جديد ما دخلك؟"
لم يجب، فقط انصرف، ومن بعيد، كانت ميلار قد توقفت مجددًا، تراقبه بنظرة لا تشبه نظرتها الأولى.

جلس رانيل في قاعة المحاضرات، وما إن بدأ الدكتور بالشرح حتى أحس بانقباض خفيف في صدره.
لم يكن ذلك من المادة، بل من المقعد الّي يقع على بعد طاولتين منه.
كانت ميلار تكتب بهدوء، تحرك قلمها كأنّه يرسم طريقًا داخله، وكان هو يسرق النظر إليها كمن يخاف العطش ويخاف الماء في آنٍ واحد.

عند نهاية المحاضرة، اقتربت منه. سكتت للحظة، كأنّها تستجمع شجاعة ما.
قالت:
"رانيل أيمكن أن ندرس سويًا هذا الفصل؟ المواد كثيرة، وأنا أحتاج لشخص يفهم بسرعة."

تجمد قلبه...

لو طلبت منه أن يحمل العالم لفعل، أو أن يمشي فوق رماد السنوات الّتي أحرقته لَمَشى.ل
كنه قال بهدوء يخالف العاصفة داخله:
"أنا جاهز، متى أردتِ."

ابتسمت:
"الغد... بعد المحاضرة."
وغادرت.

تركتْه وحده في القاعة، ومعها تركتْ صوتها يلاحقه كأنّه جزء من نبضه.

في اليوم التالي، التقيا في المكتبة.
جلست ميلار تقلب الصفحات، بينما هو ينظر إليها أكثر من نظره في الكتاب.

قالت بنبرة خجولة:
"لم أكن أعرف أنّك تتقن هذه المواد شرحك واضح."

أجاب وهو يخفي ارتجافه:
"أحاول.

سكتت قليلًا، ثم رفعت رأسها إليه:
"رانيل أنت مختلف."

قال مستغربًا:
- "كيف؟"
- "لا أعرف، لكنّه هدوء يرهقني قليلًا وكأنّ داخلك شيء لا تريد أن يراه أحد."

تجمد...
كيف لمست ما يخفيه عن العالم؟
ما الّذي تراه من بين طبقات الصمت الّتي يبنيها حول قلبه؟

قال ببطء:
"رُبّما لأنّ بعض الأشياء توجع حين تقال."
بتسمت ابتسامة خفيفة، مهذبة، خجولة، تشعل داخله ضوءًا يريد أن يبقى حتى لو علم أنّه غير ملكه.

مرّت أيام أخرى، وخلال إحدى جلسات المذاكرة، انطفأت أضواء المكتبة فجأة، تلتها جلبة سريعة وصوت ارتطام، انفزعت ميلار ووقفت، بينما اندفع رانيل نحو مصدر الصوت.

كان أحد الرفوف قد سقط تقريبًا فوق طالبة تمرّ، نجح في سحبها في اللحظة الأخيرة.

عاد إلى ميلار، فوجدها تحدق فيه وعيناها مليئتان برهبة خفيفة:
"أنتَ أنقذتها."
لم يعلق، فقط شعر بأنّ قلبه يفتح نافذة صغيرة للضوء رغم ثقل كلّ شيء آخر.

مرّت الأسابيع سريعًا. رانيل يذاكر، ويشرح، ويجتهد، وميلار تجلس بجانبه، تكتب، تصحح، تسأل، وتضحك بين الحين والآخر.
وبالمعهد، صار اسمه معروفًا؛
الطالب الّذي يفهم كلّ شيء، ويساعد الجميع.

قبل الامتحانات بأيام، اندلع شجار آخر أمام القاعة، أحد الطلاب اتهم الآخر بتسريب الأسئلة، تعالت الأصوات وارتبك الجميع.
تقدمت ميلار فجأة، وخاطبتهم بحزم:
"كفى! لسنا أطفالًا."
سكتوا.
ثم التفتت إلى رانيل بنظرة سريعة، كأنّها تستمد منه ما لا تعرف كيف تسمّيه.

وحين حان وقت الامتحانات، بدأ يدرس لها دون أن يطلب أحد.
كان يراقبها وهي تحاول إخفاء خوفها، فيشرح لها مرّة بعد مرّة.

قالت له في إحدى الليالي:
"لو لم تكن أنتَ لما اجتزت نصف المواد."
ابتسم بمرارة لم تلاحظها:
"أنتِ ذكية بما يكفي، أنا فقط أعيد ترتيب الأفكار."
لكنَ الحقيقة أنّه كان يعيد ترتيب قلبه أيضًا ولم ينجح فيه.

حين صدرت النتائج، كان الجميع يحتفل.
رانيل حصل على المرتبة الأولى في المعهد، وميلار حصلت على نتائج ممتازة أيضًا.
اقتربت منه وهي تحمل شهادتها بيديها، وعيناها تلمعان بفرح صادق:
"رانيل! أنت الأول! كنت أعلم أنّك ستفعلها!"
قال وهو يحاول الثبات:
"الحمد لله."
ومدت يدها لتصافحه.
أمسك يدها للحظة قصيرة، قصيرة جدًا...
لكنّها كانت كافية ليشعر أنّ العالم كله انضم إلى كفها.

كان يريد أن يُضمها بلحظة فرحٍ، سرعان ما تدارك هذه اللحظة ولم يفعل.
قالت له:
"أنا ممتنةٌ لك، كنت سندي الحقيقيّ هذا العام."

لكن ما لم تدري، وما لن تعرفه أبدًا، أنّه كان يعيش عليها، يحيا من أجل نظرة صادقة جاءت منها، ويتنفس من أجل لحظة قصيرة كتلك اللحظة.

وفي الليلة الأخيرة قبل التخرج، وبينما كان الجميع يحتفل في ساحة المعهد، تلقى رانيل اتصالًا قصيرًا، كلمة واحدة فقط نطقها المتصلة قبل أن ينقطع الخط اسم لم يسمعه منذ سنوات.

تجمّد...
لم يخبر ميلار، ولم يسأل أحد عنه، لكنّه أدرك أنّ هذا الاتصال سيكون بداية تغير كبير، أو انهيار لا مفر منه.

حين انتهى الاحتفال، وغادر الجميع، بقي رانيل واقفًا في ساحة المعهد. الرياح تتحرك بخفة، والسّماء مائلة إلى الليل.
همس داخله صوت خائف:
"هل هذا هو البدء أم النهاية؟"

فكرة ظهرت كبقعة ظلّ في صدره: أنّ العالم الّذي فُتح له اليوم سيُغلق قريبًا، وإنّ ما نشره الله أمامه من ضوءٍ ليس مقدرًا أن يبقى.

ومع ذلك، مُنِحَ لحظات قريبة من ميلار: ضحكات، مذاكرات، خطوات متقاربة، لحظات ستصبح لاحقًا سبب انهياره وسبب تخليها عنه، وكلّ ما سيأتي بعده.
لكنه لم يكن يعرف.
كان يعيش اللحظة كما يعطي الفقير يده للسماء دون أن يسأل لماذا؟

وبذلك تخرج رانيل وميلار من المعهد، ومعهما تخرجت قصة صغيرة لا يعلم أحد أنّها ستكون أكبر من قدرة قلب واحد على الاحتمال.

غُروبٌ يَتَغيَّرُ مَعهُ كُلُّ شَيءٍ

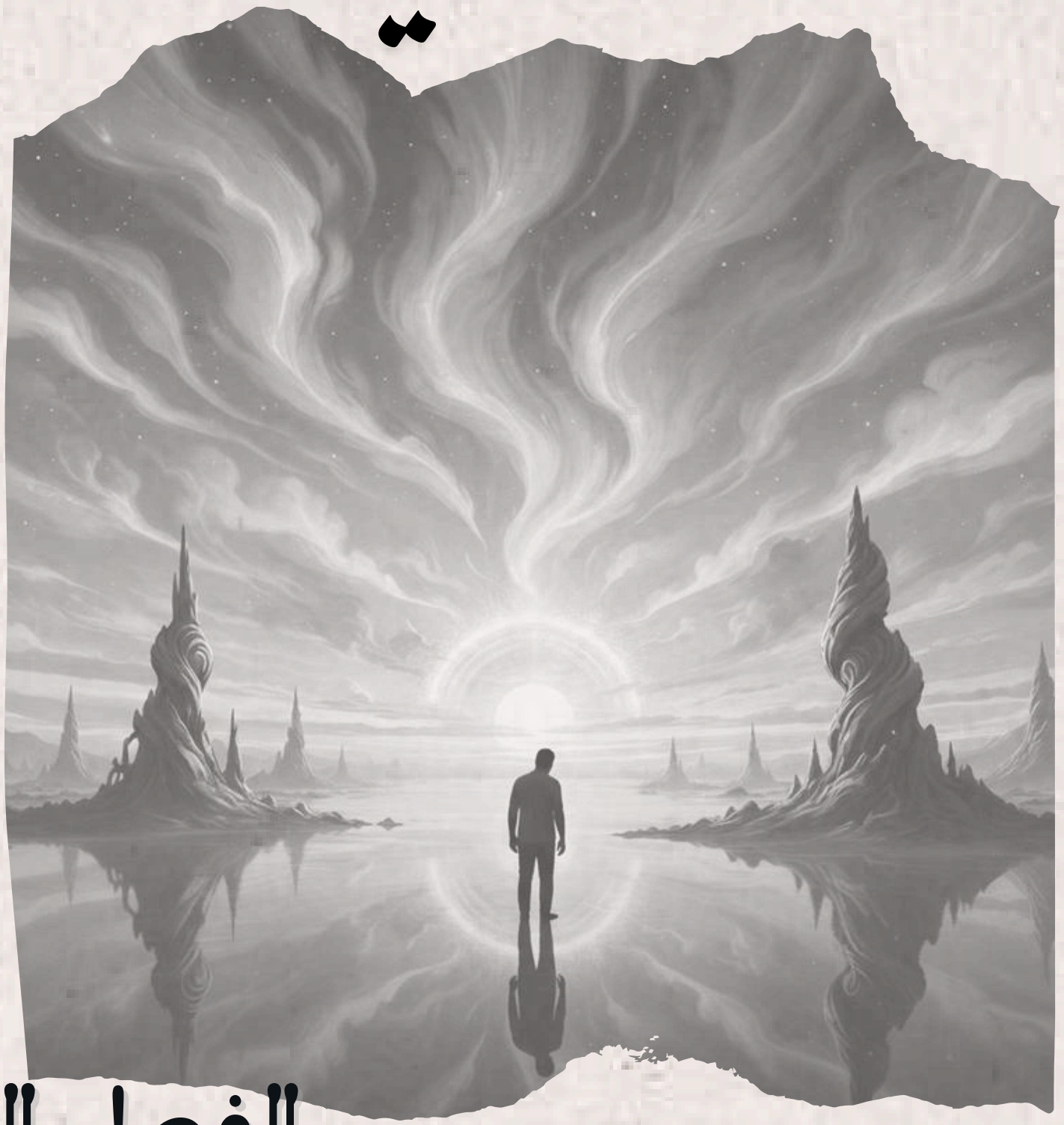

الفصل السَّابع

وهج رحيل أبدي

غُروبٌ يَتَغَيَّرُ مَعهُ كُلُّ شَيءٍ

"الشفقُ يختفي، فتنهار
كلّ الذكريات"

لم يكن رانِيل يعرف أنّ الغروب القاسي يَستطيع أن يغيّر حياةَ إنسانٍ بأكملها، ولا أنّ الدروبَ الّتي يَعرفها منذ أعوامٍ قادرةٌ على أن تَنقلِب فجأة، بلا مُقدّمات، بلا إنذار، بلا رَحمة.

ففي اللحظة الّتي تخرج فيها من التمريض بقسمه الأول، قرر إكمال طريقه في سبيل حبّه للمهنة، كان يَعود من المعهد مثقلًا بأحلام صغيرة تُبقيه قائمًا، تشبه خيطًا رقيقًا يُمسك به كي لا يَسقُط.
لكنّ الأيام بدأت تُطفئ شيئًا في داخله، شيئًا لم يعرف اسمه في البداية.
ومن بين كلِّ ما تغيَّر كانت ميلار هي التغيّر الأكبر.

لم يفهَم في البداية لماذا بدأت تنسحب منه، ولماذا صارَت نظرتُها إليه فارغة، كأنّها لم تعرفه يومًا.
هو الّذي اعتاد دِفئها، يَجد نفسه فجأة أمام جدار بارد لا يسمع فيه إلّا صدى خطَواتِها وهي تبتعد.

وفي يومٍ ما، مرّت بِجانبه، فرفع رأسه مستغربًا عدم انتباهها.
توقّف هو وتوقّفت هي لكنّها لم تبتسم. لم تقل شيئًا.
رانِيل:
"مِيلار...؟"

هزّت رأسها قليلًا، ثم مضت، بوجهٍ خالٍ من التعبير.
تلك اللحظة كانت غصة، لكنّه لم يعرف أنّ مرارةَ العلقم الذّي سيتجرعه في الأيام القادمة ستكون أسوأ.

في تلك الأيام، كانت لارين أقرب الناس إليه دون أن يطلب، كانت تَعرف صمته، تُحس بثِقله، وتلمح في عينيه ما لم يقله لأحد.

ذات مساء، وجدته يَجلس على درج المبنى، مُنحني الرأس، يحدّق في الأرض وكأنّها تحمل جوابًا ضائعًا. اقتَرَبت بخطوات هادئة، ثم جلست إلى جانبه دون استئذان.
لارين:
"رانيل، أنت مو بخير."
لم يتكلم.
ظلّ صامتًا، كأنّ روحه تبحث عن كلمة واحدة تُفسّر انهياره.

لارين:
"صار في شي بينك وبين ميلار؟"
رفع رأسه ببطء وقال:
"هي تغيَّرت، وما عرفت ليش."
نظرت إليه لارين طويلًا، نظرة تشبِه يدًا تربّت على قلبه دون أن تلمسه.

لارين:
"أنت مو مجبور تفهم كل شي بس مجبور تحمي حالك."
ابتسم ابتسامة منكسرة.
رانِيل:
"ما بعرف كيف."
قالت بلطف:
"أنا هون، مو لازِم تعيش هالوجع لحالك."

كانت كلماتها بسيطة لكنَّها كانت بمثابة حياة صغيرة أُلقيت في يديه وهو بالكاد قادر على الإمساك بها.

الأيام التالية سارت كأنّها تجره نحو حافة مجهولة. ميلار تقترب من الجميع وتبتعد عنه فقط. تمزح مع صديقاتها وتَصمت أمامه. ترتب أوراقها بجانب مقعده ثُم تنتقل إلى مقعد آخر دون سبب.

وكلما ازداد بُعدها ازداد وجعه.
رآها يومًا تضحك مع أحد الأساتذة
لم يشعر بالغيرة، بل شعر بالعجز.
ذاك العجز الّذي يُخبر الرجل أنّه خُلق ليُحب لا ليُختار.

ذات صباح، كان يَجلس في الباحة حين سمع صوت ميلار خلفه.
ميلار:
"لا... خلّيه على راحتو، ما عاد في داعي نحكي."
كانت الطعنة أوضح من أن تُخفى.

جاءت لارين لاحقًا وجلست قربه.
لارين:
"سمعت...؟"
أومأ دون كلام.
لارين:
"مو لازِم تخليها تكسرك."
قال مُطفأ الصوت:
"هي عم تكسَر كل شي كنت عم حاول أبنيه..."
مسحت على كتفه بخفّة، وقالت:
"إذا احتَجت تحكي أنا جاهزة."
وكان وجودها الشيء الوحيد الّذي يمنعه من السقوط.

مع الوقت، بدأت علاماته الدراسيّة بالتراجع. اتسع الشرود في عينيه. ابتعد عن الدروس والأصحاب، حتّى عن نفسه.

وفي إحدى الليالي، قال لأمير عبر الهاتف:
"أمير، أنا تعِبت."
أمير:
"من شو؟"
رانِيل:
"من كل شي، من ميلار ومن قلبي."

وبعد أيام قليلة، اتخذ القرار الّذي غيّر حياته:
ترك التمريض. ترك الحلم ليفرّ من صوت واحد: **صوتها**.

أكملت ميلار دراسة أقسام التمريض الأُخرى، وطوّرت من نفسها في مجال الطب كثيرًا، وعندما انتهت من دراستها، لم تلتفت للشخص الّذي كان سندًا حقيقيًا في مسيرتها تلك.

ومع ذلك سمع لاحقًا أنَّ حفل تخرج ميلار قريب.
لم يُرِد الذهاب لكنّه ذهب.
هنا وقبل الحفل بأيّام قليلة وقع الحدث الّذي كسر ما تبقّى منه.

كان رانيل جالسًا مع أمير في مقهى هادئ قرب المعهد، يحاولان الحديث عن أيّ شيء يُبعد ذهنه عن ميلار.
وفجأة دخلت ميلار مع صديقتها سالي.
كانتا تبدوان مُرهقتين، متوترتين كأنّ هناك شيئًا يُثقِل صدريهما.

لم تستطع ميلار النظر نحوه. أما سالي فكانت تُحاول كبح شيء في صدرها، شيءٌ يريد أن يخرج.

اقتربتا قليلاً وجلست ميلار على طاولة بعيدة، بينما بقيت سالي واقفة تتردد بالنظر إليه.
رانِيل:
"شو صاير؟"
همس أمير لرانيل:
"واضح إنو في شي كبير..."

نهض رانيل خطوة نحو سالي.
رانِيل:
"سالي لو سمحتي، في شي لازم أعرفه؟"
ارتجفت شفتيها.
كانت تريد الكلام لكنّها خائفة من ميلار.

التفتت ميلار بسرعة:
"سالي... لا تحكي شي."
عندها وضع رانيل يده على ذراع أمير، وهمس له:
"أمير... خد ميلار شوي لبرا."

أمير فهم فورًا، اقترب من ميلار واستدرجها للخروج بحجة بسيطة.
ومع ابتعادها تنفّست سالي بصوت مرتجف.
سالي:
"رانيل... أنا ما بقدر شوفك عم تنهار هيك لازم تعرف الحقيقة."
اقترب رانيل أكثر، قلبه ينبض بعنف:
"قولي."
رفعت سالي عينيها ببطء وقالت:
"ميلار قابلت حبيبها القديم قبل فترة هو اللي كانت تحبه زمان و... وعم تخطط ترجعله."
ساد صمت طويل، رانيل شعر أن الهواء صار ثقيلًا لدرجة لا تُحتمل.
تابعت سالي بصوت منخفض:
"هو تركها زمان وتجاهلها وتزوج بغيرها. وهي مش شايفة الحقيقة عم تجرح حالها وجرحتك معها."

ثم قالت الجملة الّتي كسّرت كيانه:
"وأنت كنت عم تحاول تحميها منه وهي ما عم تفهم."

شهِق رانيل كأنّ أحدهم سحب الأرض من تحته.
كان يعرف ذلك الرجل يعرفه تمامًا و سوء نيته، لماذا تعود إليه وأنا الّذي أخاف عليها منه.

عادت ميلار فجأة، وعندما رأت سالي تتكلم انفجرت ميلاخد:
"سالي! قلتلك لا تحكي شي!"
وقف رانيل، غاضبًا، مرتجفًا:
"ميلار... ليش هيك؟ ليش عم ترجعي لشخص دمّرك؟ ليش تضربي كل اللي عملته مشانك؟"
صرخت ميلار:
"ما لك دخل!"

تحولت اللحظة إلى مشاجرة عنيفة، كلمات جارحة، صوت رانيل المرتفع، صوت ميلارد الخافت، وصوت سالي الخائف تحاول تهدئة الموقف.
أما عن أمير فكان يقف يشعر بغضب لم يظهره.
أظهر رانيل حينها غضبه النضيد فوق قلبه منذ زمن بلحظة واحدة، كانت لحظة كفيلةٌ بكسر قلبه بشدّة.

وفي النهاية خرج من المقهى مُهشّمًا، والليل يبتلعه كأنّه لا يريد إعادته.

ومنذ ذلك اليوم تدهورت حالته أكثر.
لم يعد ينام، ولا يدرس، ولا يستطيع حتى النظر لنفسه في المرآة.
وعلى الرغم من كلّ شيء، ذهب إلى حفل تخرّج ميلار.

كانت ترتدي عباءتها البيضاء واقفة بثقة لا تشبه ما تركته في المقهى، كان رانيل قد حضّر لها باقة من الورود الحمراء الّتي تحبّها و الكثير من الهدايا الجميلة.
كانت سعيدة جدًا، ولم يلفت انتباها رانيل أو كانت تتظاهر بعدم الانتباه له.
اقترب رانيل ليقول لها:
"مُبارَك يا ميلار..."
فقاطعته أمام الجميع:
"مو ضروري تجيب شي، ما بقى بينّا شي أصلًا."
تجمّد وشعر أن قلبه ينقلب إلى الداخل، جاءت لارين الّتي كانت تراقب مسرعة:
"رانيل، قوم نطلع من هون."
سحبته قبل أن ينهار. جلسا في الحديقة.

رانِيل:
"ليش هيك عملت؟ شو عملت أنا؟"

مسحت دمعة من خده وقالت:
"موكلّ شي خسرناه خسرناه فعلًا."

ذلك المساء غيّر شكله من الداخل.
كان أول غروب من سلسلة غروب طويلة لم تنته بعد.
اليوم الّذي بدأ فيه الألم الحقيقي.
اليوم الّذي لم يعد بعده كما كان.

ليلٌ يمتدُّ فوق الرّوح

الفصل الثّامن

ليلٌ يمتدُّ فوق الرّوح

"اللَّيل يَبْتَلِعُ كلَّ شيء، والرّوح تَبْقى مُعلَّقة بين الذّكريات"

مرّت أسابيعُ طويلةٌ منذ حفل تخرّج ميلار، أسابيعُ شعر فيها رانيل كأنَّه يمشي في نفس الطريق كلّ يوم، دونَ أن يصلَ إلى مكان.
كان النهارُ يبدأ وينتهي وهو لا يشعر بفرق.
كلُّ ما حدث في تلكَ اللَّيلة التي تجاهلته فيها أمام الجميع، كان يتمدّدُ في داخله كجرحٍ لم يتعلّم أن يلتئم.
دراستُه في كليّةِ الهندسة تدهورت. غاب عن محاضراتٍ كثيرة.
بدأ ينسى مواعيدها. وانفصلَ عن نفسه شيئًا فشيئًا.

الأستاذ المُشرِف عليه استدعاهُ مرتين.
الأُستاذ:
"رانيل... أنتَ شاب ذكي، بس الواضح إنّو في شيء عم يسحبك لبرا إذا كَمَّلت هيك ما حتقدر تكمل السنة."
لم يجد رانيل كلمةً للرد.
أومأَ فقط وكأنَّه يستسلم لغرقٍ بعيد.
أمير وحدهُ الّذي لم يتركه.
كانَ يأتي إلى بيته بين يومٍ وآخر، يحملُ كأسين من القهوة.

أمير:
"قوم لازم تتنفَّس، بدي يروحك هالوجع."
رانيل:
"ما عاد قادر كل شيء اتغيّر."
أمير:
"أنت إلّي اتغيّرت مش الدُّنيا."
لكنَّ رانيل لم يقتنع.
الشيء الوحيد الّذي كان يشعرُه بوضوح هو ثقلٌ داخليّ يسقطه في كلِّ حركة.

وفي زاويةٍ هادئةٍ من كلّ هذا الانهيار، كانت لارين تراقبه، ترى كلَّ ما لا تريدُ الحياة أن يراه أحد.
كانت تُرسلُ له رسالةً كلَّ مساء:
"إذا تحب نمشي شوي خبّرني."
"لو بدك تحكي أنا جاهزة."

لم يكن يُجيب دائمًا، لكنَّها لم تغب. ولم تترك مكانها من جوارهِ، ولو لمرّة.

في أحدِ الأيام وبعد أسابيعٍ من الصمت، حدثَ ما لم يكن في الحسبانَ.

كان رانيل في الحرم الجامعي،
يحملُ كتبهُ ببطء، حين شعرَ بدُوارٍ مُفاجئ.
لم يرَ العالم إلّا كبقعةٍ باهتةٍ تتَّسع باتجاهه. سمع صوتًا ينطقُ باسمه ثم سقط.
عندما فتحَ عينيه كان في غرفةِ الإسعاف الجامعي، ولارين تمسكُ بيدهِ بقلقٍ لم تستطع إخفاءه.
رانيل بصوتٍ متعب:
"لارين...؟"
لارين، بعينين لمع فيهما الخوف:
"أنتَ وقعت على الأرض! لو ما كنت مارقة ما كان حدًّا شافك."
بدا عليه الذهول، ثم ابتسم ابتسامةً ضعيفة:
"كنتِ مارقة؟"
هزّتَ رأسَها مُرتبكة.
"إيه صُدفة."
لكنَّها لم تكن صُدفة. كانت تأتي للجامعة على غير عادتها، لتطمئن. لترى إن كان لا يزال يقف أم سقط. وهو لم يعرف.
وبينما هي تحاولُ تهدئته، دخلَ أمير مسرعًا، لهثًا:
"رانيل! يا زلمي خوّفتنا! شو صار فيك!؟"
رانيل أمالَ رأسه للخلف وقال:
"يمكن تعبت أكتر من اللازم."

هنا، حدثت المفاجأة الّتي لم يتوقعها أحد.
أخرج أمير هاتفه وهو يبتسم:
"في خبر ما بدي استنّاك لتسمعه من غيري."
رانيل نظر إليه مستغربًا.
فقال أمير وقد ازدادت ابتسامته:
"ظهرت نتائج السنة الجدد للهندسة، اسمك بينهم. انقبَلت يا أخي."
رانيل اتسعت عيناه ثم ارتجف صدره.
كان الخبرُ سعيدًا نعم. لكنَّه كان مؤلمًا أكثر ممّا ظنّ.
لأنَّه أدرك في تلكَ اللحظة:
سيصبح مهندسًا نحاجًا ، لكنّ الشخص الّذي كان يتمنى أن تكون أول المباركين له لم يعد في حياته.
أغمضَ عينيه وخرجت دمعة بلا صوت.
لارين وضعت يدها على كتفه:
"رانيل... هاد إنجاز كبير أنت بتستاهل."
لكنَّه لم يستطع أن يقول شيئًا. كانت الفرحة تلامس يده والخسارة تلامس قلبه.
سعيدٌ...وحزينٌ...
في نفس اللحظة.
كأنَّ الحياة تصفّق له بكفّ وتصفعه بالأُخرى.

وبعد أن غادرَ أمير، بقيت لارين جالسةً إلى جانبه.
نظرَت إليه طويلًا، ثم قالت:
"رانيل... مو دايم الناس اللي خسرناهم كانوا قدرنا. مرّات الخسارة هي اللي تفتح لنا باب نتنفّس منه."

رفعِ رأسه، نظر في عينيها ولأوّل مرةٍ منذ شهور شعر أن أحدًا يراه فعلا.
شعر أن الحياة رغم قسوتها قادرة على أن تمنحه ومضةَ ضوء ولو كانت ضئيلة.

ذلك اليوم...
كان أوّل مرة يفهم فيها رانيل أن الألم لا يختفي.
لكنَّه يتحوّل.
ويمكن أن يصبح بابًا لشيءٍ جديد، لشيءٍ صادق، لشيءٍ ينتظره دون أن يعرفَ شكله بعد.

اعترافُ كسّرِ حدودَ الصّمت

الفصل التّاسع

وهج رحيل أبدي

اعترافٌ كسّر حدودَ الصَّمت

"لحظةٌ صادقة، تُظهِر ما خبأه الزمن."

كانت الأيامُ تمرّ ببطءٍ لا يُطاق، كأنّ كلّ دقيقةٍ تستنزف من روح رانيل شيئًا لا يعود.
ولم يعُد يستطيع أن يؤجّل ما ظلّ يهربُ منه طيلة السنوات الماضية.
ولأوّل مرّة منذ زمنٍ طويل، شعر بأنّ الصمتَ يضغط على صدره أكثر ممّا يحتمل.

وفي مساءٍ يتدلّى فيه ضوءُ الغروبِ على الطرق الضيّقة، قابل ميلار واقفةً قرب إحدى الأشجار، بعد أن طلبت منها هذا للقاء كانت تنظر إلى الأرض، غارقةً في أفكارها.
تقدّم نحوها بخطواتٍ حذرة، كأنّه يقف أمام مصيره الأخير.
قال بصوتٍ لا يشبه صوته المعتاد:
«ميلار... قبلَ أن تقولي شيئًا، دَعيني أتحدّث. لم أعُد أُطيقُ الصمتَ، ولا الاحتمال، ولا الهرب. أنا أحبّك... لقد أحببتكِ، أحببتكِ بطريقةٍ لا أعرفُ لها وصفًا لم يكن حبًّا عابرًا، ولا نَزوةً، كان وجعي، وسرّي، وطريقتي في التنفّس.»

رفعت رأسها نحوه ببطء، وعيناها تحملان شيئًا لا يستطيع فهمه.
لكنّه تابع، كأنّ كلّ كلمةٍ تسقط من داخله لا يستطيع إعادتها:
«أعرف أنّنا فقدنا الكثير وأنّ الزمنَ لم يُساعِدني وأنّي جئتُ متأخرًا. لكنّي صادق، أُقسِم أنّي صادق. كلُّ الطرقِ التي حاولتُ أن أهرب منها كانت تُعيدني إليك.»

طال الصمت...
كان ينتظر ردًّا يعيد له الحياة، أو يأخذها منه.

تنفّست ميلار بعمق، وقالت بحدّةٍ لم يحاول تخفيفها:
«رانيل...أنا لا أُصدّقك. لا أصدّق كلمةً ممّا تقول. أنت تخلط بين التعلّق والوهم، وتريد أن تُقنعني بأنّه حبّ.»

كأنّ أحدهم أغلق الباب الأخير في قلبه.
قال بهدوءٍ مُتكسِّر:
«أنا... لم أكذب يومًا عليك.»

أجابته ببرودٍ مُوجع:
«ربّما لم تَكذب لكن ما تقوله لا يعني لي شيئًا، لن أرتبط بك، لا الآن ولا لاحقًا، أنا لا أحبّكَ ولا أثق بكَ حتّى، دع الأمرَ ينتهي هنا.»

وفي تلك اللحظة، ظهر أمير من خلف الطريق، وقد لمح المشهد الأخير من حديثهما.
اقترب بخطواتٍ ثابتة، وبصوتٍ تُغلّفه الحكمة، قال موجّهًا كلامه لميلار:
«ميلار...لستِ مُضطرّةً لمبادلته المشاعر، هذا حقّك. لكنّ الظلمَ ليس حقًّا، ورانيل ليس رجلًا يلهو بالكلمات، إنّكِ تعلمين ذلك أكثر من أيّ أحد.»
رمقته ميلار بنظرةٍ سريعة ثم قالت بنبرةٍ حاسمة:
«أمير، هذا ليس موضوعًا للنقاش.»
فأجاب بصوت أكثر هدوءًا:
«لكنّه موضوعٌ لإنصاف الحقيقة، لقد قاوم شعوره لسنوات، ولم يأتِ إليكِ إلّا حين عجز عن الاحتمال. إن لم يكن ذلك صدقًا فما هو الصدق إذًا؟»
لم تُجِب.
اكتفت بإدارةِ ظهرها والخروج بخطواتٍ سريعة، تاركةً خلفها صمتًا أكثر إيلامًا من كلماتها.

وقف رانيل مكانه، كأنّ الأرضَ سحبت منه القدرة على الحركة.
لكن أمير وضع يده على كتفه، وقال بصوتٍ خافت:
«أعرف أنّك فعلتَ ما يجب، والبقيّة ليستْ بيدك.»

وبينما كانا يغادران المكان، توقّفت سيارةُ شرطةٍ قربهما فجأة.
نزل منها ضابط يحمل ملفًّا بيده، وسأل بصرامة:
«من منكما رانيل؟»
تقدّم رانيل باستغراب:
«أنا.»
فتح الضابط الملفّ، وقال بنبرةٍ رسميّة:
«هناك شكوى مُسجّلة ضدّك...بخصوص تسريبِ أسئلةِ الامتحانِ الجامعي ونحتاج حضورك فورًا للتحقيق.»
قال أمير بصدمة:
«هذا هراء! رانيل لم يمسَّ هذه الأمور بحياته!»
لكن الضابط اكتفى بالإشارة لرجاله. اقترب اثنان من الشرطة، وطلبا من رانيل المجيء معهم.
لم يُقاوِم. لم يقل شيئًا. كان قلبه مُنهكًا بما يكفي من ضربةٍ واحدة فكيف بهذا الاتهام المفاجئ؟
قال أمير للضابط بصوت يفيضُ غضبًا وكِبرياء:
«سأذهب معكم. ولن أتركه وحيدًا، لا اليوم، ولا في أيّ يوم.»

تحرّكت السيارة ببطء، تحمل معها فصلًا انتهى بكثيرٍ من الألم وبابًا آخر يُفتح لفصلٍ جديد.
فصل البراءة أو الهزيمة أو شيءٍ لا يمكن لأيّ أحد توقّعه بعد.

لم يشعر رانيل بالوقت داخل سيارة الشرطة.
كان الجدارُ الزجاجي يعكس وجهه المنهك، كأنّه يرى شخصًا آخر شخصًا لم يعد يعرفه.
لم يكن الخوف ما يهزّ داخله، بل الإهانة والخذلان والفراغ الّذي تركته كلمات ميلار قبل دقائق فقط.
أما أمير، فكان يجلس إلى جانبه، يضغط على شاشة هاتفه محاولًا التواصل مع أيّ مسؤول يستطيع الوصول إليه.
قال أمير بصوتٍ منخفضٍ لكنّه حازم:
«اصبر يا رانيل هذا سوءُ تفاهم، وسينتهي. أنا أعرفك، وأعرف أنّ قلبك أنقى من أن يدخل في تهمٍ كهذه.»
لم يردّ رانيل.
كان يشعر بأنّ الكلام لن يغيّر شيئًا الآن. كلّ ما حدث كان أكبر من أن تُعالجه الكلمات.

قادهم الضابط إلى غرفة تحقيق صغيرة، جدرانها باهتة، ورائحة الورق القديم تملأ المكان.

جلس رانيل على الكرسي، ووضع الضابط ملفًا أمامه قائلاً:
«اسمك هنا في هذا السجل وتقول لست الفاعل..!»
أخذ رانيل الملف وعيناه تنبثق من مكانها قرأت التهمة الموجهة إليه بدقة، ولم يحرك ساكنًا.

أخذ أمير الملف و لفت انتباهه الاسم!
الاسم الموجود في الملف ليس لرانيل وإنّما لشخصٍ يشبه اسم رانيل باختلاف حرف واحد، كان الاسم «رانيال».
وقف أمير وقال:
«هذا ليس اسم رانيل صديقي، إنّما لشخصٍ آخر!»
أخذ الضابط الملف ولاحظ الاختلاف تنهد وقال:
«اسمُك مطابقٌ لاسم شخصٍ آخر متورّطٍ في تسريب الأسئلة، ولذلك تمّ استدعاؤك، سنراجع المعلومات، وقد نستغرق وقتًا.»
لم يستطع أمير إخفاء انفعاله، وقال بحدّة:
«لكنكم اعتقلتموه أمام الناس دون أن تتأكّدوا! أين المنطق؟ أين الإجراءات؟»
رفع الضابط رأسه، وأجاب ببرود:
«هكذا تسير التحقيقات، لا داعي للانفعال.»
أما رانيل فقال بصوتٍ هادئٍ خافت:
«لا مشكلة تابعوا ما يجب عليكم.»
نظر إليه أمير باستغراب:
«رانيل! هذا ليس وقتَ الصمت!»
ابتسم رانيل ابتسامة مُرّة:
«لقد اعتدتُ أن أُحاسَبَ على أشياءٍ لم أفعلها، الفرق الوحيد أنّ هذه المرّة مكتوبة على ورق.»

هزّ أمير رأسه بأسفٍ وقلق، وجلس قربه.
بعد ساعاتٍ طويلةً بدت كأنها أيّام، دخل الضابط نفسه، وبيده ملفّ جديد.
قال وهو يقلب الأوراق:
«تبيّن أنّ الاسمَ مطابقٌ فقط وليس الشخص. الشخص المطلوب من مدينةٍ أخرى. لقد تحقّقنا من سجلات دخولكم الإلكترونية، وتبيّن أنّ لا علاقة لك بالموضوع.»
رفع رأسه نحو رانيل وأكمل ببرود:
«أنت بريء.»
وقف أمير دفعةً واحدة وقال:
«وهل هذا كلّ شيء؟ تعتقلون شابًا، تُشوّهون سمعته، تجرّونه من الطريق ثم تقولون ببساطة إنّه بريء؟!»
أغلق الضابط الملفّ وقال:
«سنعمل على تصحيح هذا الخطأ في السجلات. بإمكانكما المغادرة.»
لم يردّ رانيل، فقط وقف ببطء، كأنّ كلّ خطوةٍ يخطوها تخرج من أرضٍ ثقيلة.

في الخارج، وقف للحظةٍ يتنفّس هواء الليل البارد.
كان صدره يعلو ويهبط كمن خرج من غرقٍ طويل.

قال أمير وهو يقترب منه:
«رانيل لن أدع هذا يمرّ بسهولة. سأقدّم شكوى رسميّة، يجب أن يُحاسَبوا.»
لكن رانيل أجابه بصوتٍ مُتهدّم:
«اتركها، يا أمير...هناكً معارك تُخاض دفاعًا عن كرامتنا...وهناك أخرى نخسرها قبل أن تبدأ.»
تجمّد أمير في مكانه.
كانت كلمات صديقه أصعب من كلّ ما جرى.

وفي طريق العودة، رأيا "ميلار" واقفة تحت ضوء المصباح القريب من الساحة.
كانت قد سمعت بما حدث، ووقفت تنتظر بصمتٍ مشوّش.
تقدّم أمير نحوها، لكن رانيل رفع يده، كأنّه يريد أنً ينهي كلّ شيء بآخر ما تبقّى له من قوة. اقترب منها، وقال بهدوءٍ لا يحمل أيَّ غلبان:
«جئتِ لتسألي إن كنتُ مذنبًا؟ لا تقلقي لقد أثبتوا براءتي.»
خفضتَ ميلار عينيها وقالت:
«لم آتِ لهذا، فقط سمعت وقلقت عليك.»
ابتسم رَانيل ابتسامةً خفيفة، لا تشبه أيّ ابتسامةٍ عرفتها منه سابقًا.
كانت ابتسامة رجلٍ أنهكَه الحبّ والخذلان والتعب.

وقال بصوتٍ هادئٍ جدًّا، لكنه واضح:
«ميلار... لاً أريدً منكِ شيئًا بعد الآن. لا تبريرًا... لا اعتذارًا... ولا حتى تفهّمًا.»
رفعت رأسها بسرعة، كأنّ قلبها ارتجف لمرّةٍ واحدة.
تابع:
«لقد سار كلّ شيء بطريقه وربّما هذا أفضل ما كان يمكن أن يحدث. لا ألومك، ولا ألوم نفسي. لكنّ ما بيننا ينتهي هنا.»

شعرت ميلار بشيءٍ يثقل صدرها، لكنّها قالت بصوتٍ مرتجف قليلًا:
«كما أخبرك، أنت تعيش في وهمٍ وليس حب، وها أنت الآن تظهر وجهك الحقيقيّ. هل... هل تكرهني؟»
أجاب بنبرةٍ هادئة، مليئةٍ بذاكرةٍ موجوعة:
«لا، لكنّني لم أعُد أقوى على حبّك.»

كانت تلك النهاية، نهاية ثقيلة، مكتومة، تشبه أبوابًا تُغلق ولا تُفتح ثانية.
ابتعد رانيل ببطء، وأمير يتبعه دون كلمة. أمّا ميلار، فقد بقيت واقفة تحت الضوء، تشعر للمرة الأولى أن شيئًا ما انكسر
ليس في رانيل فقط، بل في داخلها هي أيضًا.

مرّ الليل طويلًا...
ومع بزوغ الفجر، كان كلّ واحدٍ منهم يعرف أنّ القادمَ لن يشبه ما مضى.

سيبدأ من هنا:
من رجل يحاول أن يُعيد بناء نفسه،
ومن امرأةٍ تبدأ أخيرًا بفهم ما خسرت،
ومن صداقاتٍ ستتغيّر إلى الأبد.

حِينَ خذَلهُ القَلبُ وَالقدَر

الفصل العاشر

حينَ خذَلَهُ القَلبُ وَالقدَر

" خَذَلَهُ الزَّمن، وانهارت كلّ آماله بصمت."

كانتِ الأيّام تمرّ فوق رأس رانيل كجدرانٍ تنهارُ واحدةً تِلوَ الأُخرَى.

لم يَعُد يشبِه نفسَه، ولا يشبِه الشابَّ الّذي عادَ مِن الغُربة، وفي قلبِه ممرٌّ مِن ضوء. صار يراه كلُّ من حولَه، لكنّه وحدَه مَن كان يعيشُ الانطفاءَ لحظةً بلحظة.

جسده كان ينهارُ أوَّلًا:

سُعالٌ حادّ، حرارةٌ تَشتعِلُ ثمّ تَخبو، صُداعٌ ثقيلٌ يَجثُمُ على مُقدّمةِ رأسِه، وضغطٌ في الصدرِ كأنّه يحملُ صخرةً لا تفارقُ مكانَها.

لم يكنِ المرضُ مرضًا جَسديًّا فقط بل كان شيئًا أعمقَ بكثير.

كانَ مرضَ قلبٍ يعاقبُ لأنّه أحبَّ أكثر ممّا يجِب.

وفي الليل، حين يَهدأُ كلُّ شيء، يتسلّل الوجعُ إليه دون رَحمة.

يجلسُ قربَ نافذتِه، يَضع يديه حول رأسِه، ثمّ يقولُ لِنفسِه كمَن يُخاطبُ ظِلَّه:

«لَم أعد أحتمل إن لم أقُل لها ما في قلبي الآن، فسأموتُ وفي داخلي كلمةٌ واحدةٌ لم تَسمعها.»

كان يعرفُ أنّه قدِ اعترفَ سابقًا، لكنّ ذلك الاعتراف لم يكُن كاملًا، لم يكن يَحملُ كلَّ ضعفِه، كلَّ صدقِه، كلَّ خوفِه. واليوم لم يعُد يملِكُ ترفَ التأجيل.

في الصباحِ التالي، رآهُ أمير يدورُ في الجامعةِ بلا تركيز.
اقتربَ منه، نظرَ إلى ملامحِه الشاحبة، وقالَ بِقَلَق:
«رانِيل... ماذا بِكَ؟ انتَ تَبدو مرهقًا بشكلٍ مُخيف.»
هَزَّ رانِيل رأسه، وابتسامةٌ مُنطفئةٌ على شَفتيه:
«أنا بِخير يا أمير أو أُحاوِل.»
لم يقتنِع أمير، أمسكَ بكتفه وقال:
«أنتَ لستَ بخير. عينك تُخبرُني بذلك، ماذا حدَث؟»
تردّد رانيل لحظاتٍ كان يحاولُ أن يكونَ أقوى ممّا هو عليه. لكنّ عينيهِ فَضحتاه.
تنفَّس بِعُمق، ثم قال:
«سأذهبُ إلى ميلار... اليوم سأطلبُ يدَها، هذه المرّة لن أهربَ من نفسي.»
تَفاجأ أمير، فَتح فمه ليقولَ شيئًا، لكنّه توقّف عندما رأى ذلك الإصرار الممزوج بانكسارٍ حزين.
قالَ بصوتٍ هادئ :
«إن كنتَ ستذهب، فاذهب بقلبِكَ كاملًا. وإن رُفِضت... لا تترُك نفسك تَسقُط، أنا مَعك.»

أومأ رانِيل، كأنّ كلمة أنا معك أعطته شيئًا من القوّة المؤقّتة.
وتوجَّه نحو بيتِ ميلار.
وقفَ أمام بابِها لَوقتٍ بدا طويلًا، يتردّدُ بين الانسحابِ والدخول.
لكنّه أخيرًا طَرَق البابَ. وخرجت ميلار.

كان المشهَدُ عاديًّا لكنّه بالنسبةِ له كان انهيارًا داخليًّا.
قالَ بصوت مُتعَب، دافئ، مَحروق:
«ميلار... أُريدُ أن أطلبَ يدَك. لم آتِ لأُربكَ حياتَك، ولا لِأُعيد الماضي. أتيتُ لأنّ قلبي لم يَعد يُطيقُ الصمت، ولأنّني أشعر أنّني على وشكِ أن أفقدَ نفسي. أحببتُكِ بصِدقٍ لا أستطيعُ حملهُ وحدي. فهلَ تَقبلين...؟»
ظلّت تنظرُ إليه، لا تقتربُ ولا تَبتعد. ثم قالت ببطءٍ، بوضوحٍ قاسٍ:
«لا أستطيعُ يا رانِيل... لا أستطيعُ أن أرتبطَ بك، لا مستقبلَ بيننا.»

كانت كلماتُها مثل يدٍ تُطفِئُ آخرَ شمعةٍ اشتعلت داخله.
لم يجادِل. لم يُبرِّر. لم يتشبّث بفُرصة.
قال فقط:
«شكرًا لك... على هذه الصراحة الجارحة.»
وابتعد.

اختفى وجهُه في الشارع... وبقيت خطواتُه ثقيلةً كأنّها تُسحَب من روحِه مُباشرة.

عندما عادَ إلى مكانِه، رآه أمير جالسًا على مِقعدٍ في الحديقة، يَفركُ عَينيه بيده، وكأنَّه يحاولُ منع شيءٍ من السقوطً.
اقتربَ منه بسرعة:
«رانِيل...! ماذا حدث؟»
لم يرفع رأسَه.
قال بصوتٍ مَسحوب:
«رفضتني يا أمير... وهذه المرّة، شعرتُ أنّ شيئًا بداخلي انطفأ تمامًا.»
جلس أمير قربَه، وضع يده على كتِفه:
«هي اختارت... وهذا حقُّها، لكنّكَ ما زِلتَ حيًّا يا صديقي، لا تعاقِب نفسك.»
لم يرُدّ رانِيل. ظلّ صامتًا... وأمير يعرفُ أنّ الصمتَ كان أخطرَ من أيّ كلمة.
ومع ذلك... كانت الحياةُ تُعدّ له ضربةً أخرى أكثر قسوة.
خرج أمير معه، وقال بنبرةٍ غاضبةٍ وحزينة:
«ألا يَكفيكَ كلُّ ما مررتَ به؟ إلى متى ستبقى وحدك؟ تعال... لنعد لَن أتركك وحدَك بعد الآن.»

لكن رانِيل لم يكن يسمع كلَّ الكلمات.
كان ينظر إلى الأرض، إلى الفراغ، إلى شيءٍ بعيدٍ لا يراه أحد.
قال بصوت منخفض:
«أمير... أنا مُتعب، مُتعب جدًّا. أشعر أنّني وصلتُ إلى آخرِ الطريق.»
أجابه أمير بسرعة:
«لا تَقُل ذلك! ما زال أمامكَ الكثير، ما زال لكَ أصدقاء وحياة وأحلام.»
ابتسم رانِيل ابتسامةً موجوعة، ثم قال:
«لم يَعد لديّ ما أعيش لأجله، لكنّ سأحاوِل... من أجلك فقط.»

وفي تلك اللحظة، كان الفصلُ يَنتهي على صديقٍ يُحاوِل أن يُنقذَ صديقَه من نفسِه، وعلى قلبٍ جريحٍ يتعلّق بِخيطٍ رفيع، وعلى خُطوةٍ مصيريّة لم يتخِذْها رانيلً بعد، لكنّها ستكونُ بدايةً لشيءٍ آخر.

صَاعِقَةُ الفَقْدِ

الفصل الحادي عشر

وهج رحيل أبدي

صَاعِقَةُ الفَقْدِ

"الفقدُ صاعقةٌ تهزّ الروح وتترك أثرًا لا يُمحى."

مرّت الشّهور، وكأنّ الزّمنَ قد بدأ يسير في اتجاهٍ مَعكوس، كلّ لحظةٍ فيه تُرخِي ظلالَها على قلبه.
كان رانيل يشعرُ بأنّ الأيّام تتدفّق ببطءٍ، كأنّ كلّ دقيقةٍ تضعُ على كاهله عبئًا جديدًا.
كان يتوقّع أن يأتي الفرجُ يومًا ما، لكنّه لم يكن يعلم أنّ الفرجَ سيأتي محمّلًا بصاعقة.

صوتُ الرنينِ الّذي جاءه في تلك اللحظة، كان كالبرقِ الّذي يقطعُ صمتَ الليل، يُسقطه في الظلامِ أكثر مما كان.
كلُّ شيءٍ في تلك اللحظة كان مُلبَّدًا بالألمِ، يتراكمُ حتى امتلأت به الحوافُّ الداخليَّة.
شعر وكأنّ العالمَ كلّه يراهنُ على انهياره.
هاتفه اهتزّ فجأةً على الطاولة، فَجَّ الصوتُ تلك الفقاعةَ الصامتةَ الّتي عاشت داخل رأسه لأسابيعَ طويلة، حتى كان عقله يردِّدُ بلا توقُّف:
"متى سيأتي النبأ؟"

أخرج يده بتثاقلٍ، وأجابَ على المكالمة بنبرةٍ منخفضةٍ، وكأنَّ الصوتَ نفسه كانَ يحملُ عبئًا ثقيلًا عليه.

«ألو؟»

من الجهةِ الأخرى، كان صوتُ أميرٍ يتردد، صوتُ الصديقِ الّذي يعرفه جيدًا. لكنّه لم يكن الصوتَ المعتاد. كان هناك شيءٌ مختلف، شيءٌ ثقيلٌ لا يمكن إنكاره.

"رانيل..."

قالها أمير، والترددُ في صوته كان واضحًا، وكأنَّ الكلمات لم تكن لتخرج بسهولة.

«شو في؟»

أجاب رانيل، وهو يحاول أن يُظهرَ هدوءًا لم يشعر به، لكنّه شعر بأنّ هناك شيئًا سيئًا سيُقال. كان قلبه ينبضُ ببطءٍ، وكأنَّ عقله قد بدأ يصرخُ محذرًا من القادم.

تكلم أمير بصوتٍ لا يخلو من الحزن:

«ميلار... انخطبت.»

كان الصوتُ يأتيه ببطءٍ، ثقيلًا على قلبه.

«شوو...! أمير عم تمزح ما هيك مو وقت هاد المزح حباب؟»

همس بها، ولم يكن متأكدًا مما يسمعه. ربما كان قد أخطأ في فهم الكلمات.

«ارجع عيد ما استوعبت؟»

"رامي."

قالها أمير ببساطة، ولكن كلماته كانت كالسهمِ الّذي اخترق قلبه.
«هي اختارته يا رانيل...»

"**ميلار انخطبت...**"
كررها رانيل، كما لو أن عقله كان يقاوم الحقيقة.
«كيف؟ كيف انخطبت أنا بدي اياها، كيف هيك عملت وليش»
أمير شعر بما يمرّ به صديقه، وتوقف قليلاً قبل أن يجيب.
كان يعرف أن لا شيءٍ يمكن أن يخفف من وقع هذه الكلمات، لكن كان عليه أن يستمر.
«رانيل يا أخي أحيانًا... منكتشف أنو مالنا حقّ بامتلاك غيرنا."
قالها أمير بحزنٍ، وكأنّ الكلمة نفسها كانت ثقيلة على لسانه.
«ميلار اختارت طريقها، وهي رغبتها.»
"ما فهمت؟"
قالها رانيل، وكان صوته خافتًا، وكأنّ الكلمات ترفضُ الخروجَ من فمه.
«ليش... ليش ما حكت معي... ليش ما خبرتني؟»
أمير حاول أن يخفف من وقع كلماته، لكنّه كان يعرف أنّه لا يستطيع.
«يمكن... يمكن كانت خايفة أنو تجرحك، أو يمكن كانت خايفة من حالها أنو تواجهك."

«كنت مفكر أنو...»
همس بها، وفجأة شعر كأنَّ كلّ شيءٍ حوله يهدم.
«كنت مفكر أنو رح نكون لبعض للأبد.»

أمير لم يعرف كيف يواسيه، وكان يشعر بأنّ صمته هو أفضل ما يمكنه تقديمه في تلك اللحظة.
«رانيل... نحن ما منقدر نسيطر ع قرارات غيرنا. منقدر نحب، بس ما عنا حق الامتلاك .»

ركب صمتٌ ثقيل بينهما. لا كلمات أخرى كانت كافية لتخفيف الجرح الّذي كُسِرت فيه الرّوح.
رانيل أغلق المكالمة ببطء، والشعور بالفراغ بدأ يملأ المكان.
الهواء أصبح ثقيلًا، كان يثقله الألم.
شعر وكأنّ جزءًا من قلبه قد تمزّق، وكأنّ الضربة جاءت من حيث لا يحتمل.

نظرت عيناه إلى الفراغ، يبحثان عن شيء يُمسك به، شيء يجعل الواقع يبدو أقل قسوة، لكنّه لم يجد.
لم يجد شيئًا سوى الفوضى الّتي ملأت رأسه والمكان أيضًا.
"ميلار... انخطبت."

تكررت الكلمة في ذهنه، وكأنّها لحنٌ قاتلٌ لا يمكنه أن يهرب منه.
»كيف بدي اعيش بدونها، كيف رح كفي طريقي؟"
همس بها، وهو ينظر إلى السقف كأنّ الجواب سيأتي من هناك.
ولكن لم يأتِ الجواب. الصمت كان يحيط به.

وكلما زادت العزلة حوله، كان يتذكر تلك اللحظات، تلك اللحظات الّتي كانت فيها ميلار معه.
كانت ضحكاتها الّتي تملأ المكان، وكانت عيناه الّتي تنظر إليها دائمًا بحبّ، كانت هي كلّ شيء في حياته، فكيف يمكنه أن يتخيلها مع شخص آخر؟

كان يشعر بثقل الزّمن وهو يمرّ، وكأنّ الوقت يمرّ ببطءٍ، وكلّ ثانية تزداد قسوة.
كلّ شيء أصبح باهتًا، وكأنّ روحه قد تمزّقت إلى أشلاء صغيرة، وها هو يحاول جمعها.
ولكن كانت كلّ محاولة تفشل.

بعد فترةٍ طويلةٍ من الغرق في أفكاره، دخلت لارين الغرفة.
كانت هي الصديقة الّتي دائمًا ما كانت تراقب، تحاول أن تراه وهو يبتسم، ولكن اليوم كان يراها على غير عادتها.

كانت تقف هناك، تنظر إليه كما لو كانت تعرف تمامًا ما يشعر به.
«ما رح تبقى لحالك، رانيل."
قالتها ببساطة، لكنّ الكلمات كانت تفتح له بابًا ضيقًا من الأمل.
"كيف رح اعيش بدونها؟"
قالها بصوتٍ خافت، لم يكن يبدو عليه سوى الانهيار.
«ستعيش... أنت أكبر من هاد الألم.»
قالتها، لكن في كلماتها كان هناك أملٌ أكثر مما كان يستطيع أن يراه.
«لأنو ما رح اتركك، أنا جنبك."
رانيل رفع رأسه ببطءٍ، وعينيه مليئتان بالحيرة.
"طيب... كيف؟ كيف رح استمر بعد كل هي الصدمات؟"
لارين، الّتي كانت تعرف أنّ الألم لا يمرّ بسهولة، أجابته بلطفٍ، لكنّها كانت مصرة:
«رح نعيش لأنو عنا قدرة نتخطي الألم، مو لأنو مننسى. لازم تشق طريقك، متل كنت تعمل أنت دائمًا."

رانيل أغلق عينيه، وأخذ نفسًا عميقًا، كأنّه يحاول أن يجد الطريق وسط الظلام.
«ما بقدر اعيش بدونها؟ كيف بقدر اعيش بدون ما حس أنو فقدت كل شي؟"

لارين ابتسمت له ابتسامة صغيرة، كانت تبعث في نفسه شعورًا بالراحة رغم كلّ شيء.
ثم قالت:
«اشكي همك لربك، هو بخفف عنك، طلع ع حياتك رح تلاقي كتيرر شغلات حلوة فيك.»

أثناءِ انسياب الوقت كالساعات المتعبة، شعر رانيل بأنّ قلبه قد تناثر إلى قطعٍ صغيرة، لا يمكن جمعها مهما حاول.

كانت الأيام الّتي مرّت أمام عينيه كظلالٍ خافتة، لا تحمل سوى طيف الذكريات، الّتي لا يجد في نفسه القدرة على الهروب منها.
أحيانًا، في اللحظات الأكثر ظلمة، ندرك أن ما نعتقد أنّه أمل، كان مجرد خيط رفيع من الوهم، سرعان ما تنقطع نهايته.
وربّما كان هذا ما حدث، إذ بدا أنّ لا شيء في هذا العالم يستطيع أن يعيد ترتيب فوضى روحه.

صمت الكلمات كان أكثر صوتًا من أي حديث.
تلك الجملة تركت في قلبه فجوةً واسعة، وملأت كل زاويةٍ من كيانه بالحزن.
"ميلار... انخطبت"

كانت تلك هي الحقيقة الوحيدة الّتي غزّت عقله، وأصبح يراها في كلّ مكان، في الهواء، في الضوء، في الليل الطويل الّذي امتدّ حتّى أصبح لا نهاية له.

ألم يشعر الإنسان يومًا أنّ الزّمن قد تحوّل إلى قيد ثقيل، وإنّ اللحظات لم تعد أكثر من أطياف فارغة تتراقص أمام عينيه، ولكنّها تبقى بعيدة، غير قابلةٍ للّمس أو الإحساس.

في تلك اللحظات، كان يعلم أنّ الحياة، رغم كلّ الآمال الّتي حملها، لا تعود كما كانت.

أثَرُ صَدعٍ في الذّاكرة

الفصل الثّاني عشر

وهج رحيل أبدي

أثَرُ صَدعٍ في الذّاكرة

"أثر الماضي يظلّ عالقًا في أركان الذّاكرة."

لم يكن رانِيل يتوقّع أن تتحول الأيّام القليلةُ الماضيةُ إلى ضغطٍ يلتهمُ أنفاسه.
كان يعيشُ على هامش الأشياءِ، يتحرّك ببطءٍ كأنّ داخله يَنهارُ ببطءٍ لا يَراه أحد.

وفي مساءٍ باهت، بَينما كان يجلس وحيدًا أمامَ شاشة هاتفِه، ظهر إشعارٌ صغيرٌ في أَعلى الشاشة، إشعارٌ لم يكن عابرًا.
"ميلار... غيَّرت حالتها إلى: مَخطوبة."
تجمَّد.
لم يَستطع تحرِيكَ إصبعِه.
الصورةُ أمامَه لَم تكن مجرّد إعلانِ خُطوبة، بل ضربةً مُحكمةً في أعمق نقطةٍ ظلّ يُخفيها منذُ سنوات.
ضغط على الصورة ليفتحَها. ظهر وجهُها يبتسِم. وعيناه تُنكرانِ ما تراه روحُه.
ارتجّ صدرُه. سقط الهاتفُ من يدِه. بدأ يتنفّسُ بصعوبةٍ، وكأنّ صدره ينكمشُ حولَ قلبٍ يتكسَّر.

تَمتم بصوتٍ خافت:
"لا... مو هادً... مو هاد اللي كنت خايف منه."
لم يشعر بنفسِه حين فقد توازنه.
الصَّدمةُ انسكبت على جسده دفعةً واحدة، وفَجأةً اختفى كلّ شيءٍ حولَه.
الأرضُ اقتربت من وجهه بسرعة، ثمّ لا شيء، ظلامٌ مُطبِق.
آخرُ ما سمعَه كان صوت شاب يصرُخ:
"شَبَّك؟! يا أخي رد علي! اتصلوا بالإسعاف بسرعة!"

استيقظ رانِيل وسطَ ضوءٍ قويّ، وروائحِ مُطهّرات، وأصوات أجهزةٍ تطنّ من حولِه.
حاول النّهوض لكنّه لم يعرِف أين هو.
ومجرَّد مُحاولة تذكّر ما حدث جعلَ رأسَه يدورُ بقوّة.

اقتربَ الطبيبُ منه:
"رانِيل... اسمعني. انت تعرضت لانهيار عصبي حاد، وجسمك دخل في صدمة."
"أنا وين كنت؟ ليش هون؟"
"انهرت فجأة. ويبدو إنّك فقدت جزءًا من الذاكرة مؤقتًا. مو كل شي بس في فترة مُعيّنة ذهنك رافض يوصلها."

حدَّق رانِيل بصمت.
الاسمُ الّذي حاوَل تذكّره اختفى كدُخان.
"مِـ... مي... لا...؟"
توقَّف.
لم يقدِر يكمِل. كأنّ عقله يمسح الكلمةَ قبل أن تخرج.
نظر الطَّبيب إليه بحذر:
"رَح يرجع كلشي تدريجيا بس بدنا نراقب حالتك. الضَّغط النفسي كان كبير."

لم تكن الذاكرةُ المفقودةُ كاملةً، بل مُجزَّأة، كصفحاتٍ من كتابٍ تمّ تمزيقها.
كان يتذكّر لارين، يتذكَّر أمير، أيّام الجامعة، الغُربة ،العودة.
لكن شيئًا ما، امرأةً ما كانت تقفُ خلف جدارٍ ضبابيٍّ داخله، لا يُريد أن يُريه ملامحَها.
كان يشعر بغيابٍ يثقُل صدرَه، لكنه لا يعرف اسم الغياب.
وفي كلّ مرّةٍ يحاوِل تَذكّر اللحظةِ الّتي انهار فيها، كان رأسُه يَدور ويفقدُ القدرة على التَّركيز.
بدأ رانِيل يَخرج من البيتِ بخوف، مُتوكئًا على ذاكرةٍ فقدَت ملامحَها. يحاول ربط الصورِ ببعضها، يسأل نفسَه:
"شو اللي صار؟ مين كنت عم شوف؟ وليش حسّيت قلبي عم ينفجر؟"

لكن لا جواب.
قرَّر زيارة الأماكن التي كان يشعر أنّها مرتبطةٌ بذلك الفراغِ الأسود في داخله.
ذهب إلى مقهى قديم طالما جلس فيه، جلسَ في الزاويةِ اليمينيّة.
نظر إلى الطاولة أمامه.
شعر أنَّ شخصًا ما جلس هُنا معه، ضحكَ معه، نظر في عينيه.
لكن ذلك بَقي بلا وجه.

ثم زار الحديقة الّتي كان يمرّ بها كلّ يوم. وقف عند الطريق الترابيّ. تنفَّس، وانتظر أن يتذكَّر.
لا شيء.
إلّا إحساسًا بألمٍ يُوقظُه من الداخل.

في إحدى الليالي، وبينما كان يقلّب هاتفَه بحثًا عن أيّ دليل، ظهرت صورةٌ مشوَّشة في ذاكرةٍ محذوفةٍ جُزئيًا:
وجهٌ ضبابي، شعرٌ أسود، عَينانِ مَذعورتان، وصوتٌ بعيد:
"رانيل... لا تروح."
شَهِق. حمل رأسَه بين يديه.
"مين؟! مين أنتي؟!"
لكن الصورةَ اختفت بسرعة.
ومعها عاد الصُّداعُ يطرُق جبهتَه بشدّة.

ومع مرور الأيام، بدأت كلمةٌ واحدةٌ تلمع في خلفيّة ذاكرته، كأنَّها تحاولُ العودة رغم الألم:
مي... لار...
حرفان، ثم ثلاثة وظلَّ من ابتسامةٍ بعيدة وارتجافٌ خفيفٌ في صدره كلّما حاول نُطق الاسم.
لم يعرف التفاصيل ولا ما الّذي يَجعله يشعر أنّه يخسر شيئًا لم يفهَمه بعد.
لكنَّه كان مُتيقّنًا من شيءٍ واحد:
أنّ هناك امرأةً من ماضيه كانت البدايةَ والنهاية.
وأنّ طيفها بدأ يعود إليه ببطء. كأنَّ ذاكرته تحاربُ لتستعيدَها مهما كلّفه الأمر.

لم يكن الليلُ صديقًا لرانيل في تلك الفترة. كلّما أطفَأَ الأنوار، اشتعلَت داخله الأسئلةُ الّتي لا يملك لها جوابًا.
وبينما كان يجلسُ على سريره، يتأمّل سقف الغرفة، شعر بأنّ شيئًا ما يتحرّك في حافّةِ ذاكرته كظلٍّ يحاولُ أن يعيد نفسَه بالقوّة.
أغمَضَ عينيه. ظهر صوتٌ ضعيف بعيد، صوتٌ أنثويّ يكاد يُسمَع:
"رانيل... رجاءً لا تعمل هيك بحالك..."
فَتَح عينيه بسرعة. حدَّق في الجدار.
"مَن...؟ مين؟!"

لم يجب أحد. لكن قلبَه خفق بقوة، كأنّ الصوتَ كان يعرف طريقه إليه جيّدًا.

في اليوم التالي، أصرَّ صديقُه أمير على زيارته.
دخل الغرفة ورآه شاحبًا، كمن يَسير بين الحياةِ واللاوعي.
"رانيل... شو اللي عم يصير معك؟ عم تخوّفني."
"أمير... أنا مو فاهم. في شي ناقص... أو مو ناقص... مَخبّى. شي كبير."
"طيب تذكّر... شي عن مين؟ عن شو؟"
"ما عم أقدر... كل ما بشوف ملامح بوجهي... بحسّ إني كنت قريب من شخص... كتير قريب... وبنفس الوقت بعيد عنه، وما عاد بعرفه."
جلس أمير بجانبه، وتنفَّس بعمق، ثم قال ببطء:
"رانيل... صار وقت تعرف الحقيقة. في اسم... كل حياتك كانت معلّقة عليه."
"اسم...؟"
تردَّد أمير، كأنّ الكلمةَ مَحظورة.
"مين...؟ قول...؟"
"اسمها..."وقبل أن ينطِق، ارتجف رانِيل فجأة، وضع يده على رأسه.
"لاا... لا تقول... وَجع... وَجع براسي..."

"شو في؟!"
"كل ما بقرّب من هالكلمة... بحسّ عقلي عم ينفجر..."
أمسكَه أمير من كتفيه:
"معقول ما تذكّر؟ ولا شي؟ ولا حتى شكلها؟"
أجاب بصوتٍ مكسور:
"بحسّ في عيون عم تبكي وعم تروح بس ما عم شوف الوجه..."
سكت أمير.
أدرك أنّ الصَّدمة لم تَكن بسيطة. الذاكرةُ لم تَفقد الحدثَ فقط بل، دَفنت المشاعرَ معه أيضًا.

بعد مغادرة أمير، بَقي رانيل وحده في الغرفة.
فتح درجَ مكتبِه بلا هدفٍ واضح. ظهر دفترٌ صغيرٌ قديم، غلافُه مُمزّقٌ من الأطراف.
التقطه دون وعي. لم يتذكَّره، لكن شيئًا ما في داخله دفعه لفَتحه.

الصفحةُ الأولى كانت فارغة.
لكن الصفحة الثانية، كانت تحتوي على جملةٍ كتبها بخطٍّ مُرتجِفٍ منذُ أشهر:
"ميلارَ... إذا رحلتي، راح يضيع شي مني ما بَعود ألاقيه."
تجمَّد. مرَّر أصابعه فوق الاسم:
ميلار.

فَجأة...!
اهتزّت روحُه من الداخل.
كأنَّ الاسمَ ليس كلمة، بل بابًا يكاد يُفتح.
وشعر بدمعةٍ ساخنةٍ تنزل على خدّه دون أن يفهم لماذا.
همس بصوتٍ منخفض:
"مِـ... لار...؟ أنا... كنت بعرفِك؟ كنت شي بالنسبة إلك؟"
لم يجب أحد. لكن قلبَه أجاب بقوّة.

في الليل، وبينما كان مُستلقيًا، اقترب وميضٌ من ذاكرته, صورةٌ لا تزال ضبابيّةً لكنّها أوضح من قبل، كانت تقِف أمامه فتاةٌ بشعرٍ أسود يصلُ كتفيها عينان فيهما شيءٌ يُشبِه الخوف وفي يدها وردةٌ صغيرة.
قالت له في الوميض:
"رانيل... لا تَرجع تكسر حالك عشاني..."
انتفض واقفًا.
"ميلار... أنتي؟! شو كنتي بالنسبة إلي؟!"
اختفت الصورةُ فجأة، تاركةً خلفها صدًى يوجعُه أكثر مما يُطمئنه.
رنَّ هاتفُه منتصف الليل. رقمٌ مجهول. تردَّد لحظة... ثم ردّ.
"ألو...؟"
صمت. ثم صوتٌ أنثى يتنفَّس بخوف.
"رانيل...؟ أنت بخير؟"

شَعَر بقشعريرةٍ تَسري في جَسده.
الصوتُ كان مألوفًا، مألوفًا حدّ الوجع.
"مين؟ مين حضرتِك؟"
صمتٌ طويل ثم:
"أنا..."
تنهَّدت ببطء، كأنَّها تخاف أن تقتُلَه الكلمة:
"... ميلار."
اتّسعَت عينا رانِيل. سقط الهاتفُ من يده. وتوقَّف الزمنُ لثوانٍ طويلة.
كان ذلك الاتّصال هو الشّرارةُ الّتي بدأت تعيدُ ذاكرته من تحت الرُّكام. ببطء وبألم وبقلبٍ لا يعرف إن كان يستعدُّ للعودة أم لانهيارٍ أكبر.
سقط الهاتفُ من يَد رانِيل، لكنّ صوتها ظلّ يَسمع أنفاسها عبر السّماعة.
لم يشعر بقدميه وهما تَتحرَّكان نحوه، فقط التقط الجهازَ من الأرض بيدٍ تَرتجف.وضعه على أذنه.
"قـ... قُلتي ميلار؟"
لم يكن السؤال سؤالًا، بل ارتجافةُ روحٍ تحاول التعرّف إلى ندبتها الأولى.
جاء صوتُها ضعيفًا، هشًّا، كأنَّها تخاف من الكلمةِ نفسها:
"إيه... أنا."

أغلق رانِيل عينيه بقوّة. فَجأة بدا كلّ شيءٍ حوله ثقيلًا الجدران، الهواء، حتّى جسده.
"ليش عم تتصلي فيني؟ أنا ما بذكرك منيح. كل شي مُخربط."
همست بصوتٍ مكسور:
"عرفت، سمعتً إنك تعبت وإنك فقدت شوية من الذاكرة."

سكت. لم يعرف هل عليه أن يكره صوتَها أم يتعلَّق به.
"ميلار... أنا ما عم أفهم. شو كنت تعني بالنسبة إلي؟ و ليش كل ما بسمع اسمك قلبي بيوجع؟"
صمتت طويلًا. وكأنّها تبحث عن الكلماتِ ٱلتي لا تُقال بسهولة.
ثم قالت بخفوت:
"لأنّك كنت دايمًا أكبر من كلمة صديق."
ارتجف رانِيل. لكن عقلَه لم يقدر يربط المعنى.
"يعني كنت نحبّ بعض؟ ولا كنت أنا لحالي؟"
لم تجب.

الصمتُ الّذي تَلا سؤاله كان كافيًا ليخبره أنَّ شيئًا كبيرًا كان موجودًا ثمّ انكسر.
جلس على طرف السرير، واضعًا يده على جبينِه.
كان يسمع صوتَها، لكنّ الصور داخل رأسِه كانت تتحرّك ببطء شَديد، كأنّ الذاكرة تُفكّ الأقفال واحدًا تلو الآخر.

"ميلار بدي اسألِك شغلة..."
"قول..."
"أنا... أنا وقعت؟ يعني أنا اللي انكسرت؟ ولا أنتي اللي بعدتي؟"
انحبَس صوتُها لحظة. ثم قالت جملةً قصيرة، لكنها كانت كالسكّين:
"نحنا اتنيناتنا وقعنا بس أنت اللي توجعت أكتر."
شعر بشيءٍ يضرب في صدره. أغمض عينيه وومضَت صورةٌ صغيرة:
يدُ فتاةٍ كانت ترتجِف وعينانِ مُمتلئتان بالخوف وصوتٌ يقول:
"ما كنت بدي أجرَحك بس أَنا مو إلك."
فتح عينيه فورًا.
"ميلار!... هل قُلتيلي مرّة: أنا مو إلك؟!"
شهقت من الجهة الأخرى.
ثم أتى صوتُها مذعورًا، خافتًا:
"رانيل... بعدك مُتذكّر هالجملة؟!"
وضع يده على رأسه وهو يلهث.
"ما بعرف، يمكن; بس حسّيت فيها، كأنّك قُلتيها قدّامي قبل شوي."
قالت وهي تُحاول السُّيطرة على خوفِها:
"أنت كنت تعبان ووصلت لمرحلةٍ حسّاسة. وأنا ما كنت جاهزة."
"جاهزة لِشو؟! أنا شو قُلت لك؟ شو عملت؟!"

ارتفع صوت أنفاسها، كأنّها تبكي بصمت:
"رانيل... أنت اعترفت"
انتفض جسدُه.
"اعترفت...؟ بشو؟!"
"بـ... بِحُبّك إلي."
توقَّف الزمن.

كلمة "حُبّك" جعلَت شيئًا داخله يفتح كأنّ بابًا مغلقًا منذُ سنوات انشقّ سنتيمترًا واحدًا فقط. وومضةٌ جديدة ضربت رأسَه:
كان يقِف أمامها، قلبُه يرتجِف ،وصوتُه مُتكسِّر:
"ميلار... أنا بحبك."

ثم وميض آخر: عَيناها، الخوف، التَّراجُع، الخطوةُ الّتي ابتعدت فيها عنه. والليلُ الذي انهار فوقهما.
غطّى رانيل وجهه بيديه.
"يا الله... يا الله... أنا فعلًا قلتها؟!"
قالت بصوتٍ مبحوح:
"إيه... قلتها. وكنت عم ترتجِف وأنا ما عرفت شو أعمل."
رفع رأسه، صوتُه مكسور لكنَ ثابت:
"ميلار... إذا كنت بعرفِك... وإذا كان في شي بيناتنا ليش تركتيني؟ ليش تركتيني لهالدرجة إنّه أنسى؟"

ارتعش صوتُها:
"لأني كنت خايفة ولأنك كنت صادق زيادة عن اللزوم وأنا ما كنت جاهزة لهالصدق."
"وخُطوبتك؟ شفت صورتِك..."
شهقت. ثم قالت بخوف:
"ما كان لازم تشوفها كنت رح خبِّرك بطريقة تانية "
ضحكَ رانيل ضَحكةً قصيرةً مؤلمة:
"ما تزعلي، ناسي نص حياتي، بس مو ناسي الوجع."
اختنق صوتُها:
"رانيل... أنا آسفة، آسفة كتير..."
"ميـ... لار... قُوليلي الحقيقة الأخيرة..."
"شو؟"
"هل كنتي... تحبيني ولو شوي؟ ولا كنت لحالي؟"
صمتٌ طويل. مُؤذٍ، ثَقيلٍ مُحمَّل بألف احتمال.
ثم قالت بصوت كسر كلَّ ما تبقّى منه:
"كنت خاف أحبَّك، ولهيك هَربت."

ودعته و اغلقت الاتصال، ولكنّها تركت قلب رانيل معلقٌ بها، فكانت هذه آخر مرّةً سمع بها صوتها.
وبقي رانيل وحيدًا في الغرفة، قلبُه ينبِض بقوّة ورأسه ينبِض أكثر، والذّكريات بدأت تتحرّك.

كأنّها تنفض الغبارَ عن نفسها وتَعود إليه قِطعة، قِطعة.
تذكر كلّ ما حدث للوهلة الأولى.
اعترافٌ خيّم فيه وجعٌ لا يمحو.

وميلار كانت ثمنُ ذلك، لينكسِر مرّةً أخرى.

الظِّلُّ الذي يسقط من الروح

الفصل الثَّالث عشر

الظِّلُّ الَّذي يَسقُطُ مِنَ الرّوح

"في عُمقِ الظّلامِ، هناكَ من يقتربُ ليتركَ أَثرهُ."

أثير: فتاة نقيّة القلب، تحبّه بصمتٍ أليم

كانتِ الأيّام تَمضي ببطءٍ يشبه لانطفاء، كأنَّ الزمن نفسه يتثاقل فوق كَتفي رانيل، يدفعه من داخله لا من خارجه، وكلّما حاول أن يقف، وجد روحه تهوي مجددًا في الفراغ ذاته:

"فراغٌ اسمُه ميلار."

حتى جاء اليوم الّذي شعر فيه أن المدينة تضيق عليه، إنّ كلّ شارع يُذكّره، وكلّ زاوية تعيد قصته من البداية.

فقرر أخيرًا أن يفعل ما لطالما خاف منه:

"يرحل."

لم يكن يهرب من الأماكن كان يهرب من قلبه، ومع ذلك حمله معه إلى المدينة الجديدة، قلب لا يزال مغطّى بطبقة رماد، يمشي بلا هدف، يبتسم بلا روح، ويتظاهر بأنّه قادر على البداية.

لكنّه يعرف أنّ البداية تحتاج قلبًا جديدًا، وهو لم يعد يملك قلبًا أصلًا.

وفي تلك المرحلة الرماديّة من حياته...

ظهرت أثير.

طالبة طب، تمتلك حدسًا غريبًا، ونقاءً يشبه الضوء حين يلامس ماءً هادئًا.
ليست جميلة فقط بل تحمل شيئًا يجذب الرّوح قبل العين، بصيغةٍ لا تشبه أحدًا.

كانت تراقبه منذ أشهر عبر مواقع التواصل، ولما جاء إلى المدينة الجديدة كانت هي نفسها مدينتها، وحين التقيا أول مرّة، أحسّت وكأنّ القدر يدفعها نحوه دفعًا.
في لقائها الأول معه قالت:
«كيف حالك؟»
فأجاب بنبرة لا تخلو من الحزن:
«أنا بخير.»
وكانت تلك الإجابة مجرد مراوغة لمرارة الفقد.
قالت أثير بصوت ناعم:
«أنتَ لا تدرس... أنتَ تفكر بصوت لا يسمعه أحد غيرك.»
ابتسم خفيفًا:
«أنا أحاول، أحيانًا نقرأ لننسى شيئًا آخر، لا لنفهم ما أمامنا.»
سألته بنبرة أعمق مما توقع:
«وهل نسيت؟»
نظر إليها طويلًا ثم قال:
«النسيان مهارة وأنا لا أملكها.»

ومن تلك الجملة دخلت أثير إلى عالمه دون أن يلتفت القلب لها.

مرت أيام ثم أسابيع، وبدأت صداقتهما تنتشر كالماء في تعبٍ قديم.
تتواجد بهدوء، دون أن تفرض نفسها، وكان يسمح لها لا حبًّا، بل لأنّ وجودها يخفف شيئًا داخله. ويوماً، وهما يسيران قرب المكتبة، قالت:
«أشعر أنّك تخبّئ شيئًا ثقيلًا هنا»
وأشارت إلى صدره.
«وكأنّك تخشى أن يراه أحد.»
قال ساخرًا بوجع:
«لو رأى العالم ما بداخلي لذُهل، لن يبقى أحد.»
قالت بثقة:
«أنا لن أهرب.»
أجاب منكسرًا:
«لا يحقّ لك أن تعدي بذلك.»
«وهل عليّ الاستئذان كي أقترب؟»
«نعم، لأنّ الاقتراب مني موجع.»
ومع ذلك اقتربت.
صارت أثير تملأ يومه:
رسالة صباحيّة، حوار مسائيّ، مشاركة صغيرة ليومه.

وكان يحاول أن يمنحها فرصة.
لكن في كلّ ضحكة معها كان وجه ميلار يظهر داخله. وفي كلّ كلمة منها، كان يسمع صوتًا آخر وراءها. ومع ذلك حاول. بصدق مرهق.
ذهب معها لمطاعم، لأفلام، لحديقة صغيرة.
وقال داخله:
«ربّما... ربّما أستطيع أن أتحرر.»
وكانت أثير تحبّه أكثر، دون أن تطلب شيئًا.
في ليلة هادئة، بكت أثير قربه وقالت:
رانيل أريد أن اخبرك بشيءٍ مهم.
صمت و نظرة لها بجدية أكثر وقال:
«ما هو؟!»
«رانيل... أرجوك، لا تبتعد. أحتاج أن أعرف، هل لي مكان في قلبك؟ ولو قليل؟»
قال صادقًا:
«أثير، أنا أحاول.»
«تحاول ماذا؟»
«أن أحبّك.»
«وهل نجحت؟»
صمت طويلًا... ثم قال:
«لا.»

انكسرت عيناها، فأمسك يدها:
«أنا آسف... والله أحاول.»
قالت:
«رانيل... الحبّ ليس محاولة.»
«أعرف، لكن قلبي ليس مستعدًا.»
«ليس مستعدًا، أم ما زال هناك؟»
ارتجف صوته:
«لا أعرف...»
ثم قالت:
«رانيل... أنا أحبّك.»
أغمض عينيه، وكأنّ الزمن يكرر نفسه.
قال منهارًا:
«ليتني استطيع، لكن روحي مشغولة بحزن قديم.»
«اسمها ميلار... أليس كذلك؟»
ولم يجب.
لكن صمته كان اعترافًا كاملًا.

وعندما رحل رانيل فجأة، من دون أن يشرح، لم تبكِ أثير أمام أحد. بكت وحدها، في غرفتها، على ذلك الرجل الّذَي أحبّته بكلّ ما تستطيع، والّذي لم يستطع أن يحبّها ليس لأنّها لا تستحق، بل لأنّ قلبه كان مأخوذًا، وممتلئًا بامرأة لم تعد له.

توقّفت عن متابعة صفحاته. لكنّها كانت تدخل إليها خلسة كل أسبوع، تطمئن فقط أنّه بخير. لم تكرهه، ولم تلُم القدر، فهي تعرف أن الحبّ ليس وعدًا، الحبّ اختيار.
ورانيل لم يستطع أن يختارها. وهذا كان يكفي ليكسرها ببطء.

في ليلة غيابها، جلس يحدّق في ظلام طويل. فتح رسالتها قرأ كلّ كلمة. وقال داخله:
«كانت الأقرب... وكان يجب أن أبقى.»
لكن صوتًا داخليًا قال:
«لا تكذب... قلبك لم يكن معها.»
همس عند النافذة:
«أثير... كنتِ ألطف... وأنا... الأكثر ضياعًا.»
وظهرت ميلارَ مجددًا.
ابتسامتها... صوتها... وكأنّ الماضي يمسكه من شرايين قلبه.
جلس على الأرض وقال بصوت يتكسر:
«أثير... كنتِ تستحقين رجلًا كاملًا، وأنا نصف رجل، ونصف ذكرى.»

هكذا...
لم يهرب رانيل من ميلار، بل حملها معه إلى مدينة أخرى، إلى قلب آخر يحاول أن يقترب منه، إلى امرأة أحبّته بصدقٍ مؤلم.

لكن الظلّ، ظلُّ ميلار، كان يسقط من روحه أينما ذهب، ويطفئ كلّ محاولة للنسيان.
وبقيت أثير خلفه، تكتب له في سرّها رسالة واحدة، لم ترسلها أبدًا:
«أحببتُ رجلًا لم يكن لي، ولم يكن لأحد...
كان فقط لميلار.»

انطوت الليالي فوق قلب رانيل بحزنٍ شديد،لا عرف كيف يتخلص منه، يحاول إغلاق ماضٍ مؤلم، لكن الذّكرى أقوى من أن تُمحى.

لَيلَةُ المَطَرِ الثَّقِيلَة

الفصل الرَّابع عشر

لَيلَةُ المَطَرِ الثَّقيلَة

"المطرُ رفيقُ الدموعِ، يغسلُ ثقلَ الحزنِ في الرُّوحِ."

كانت السَّماءِ مُثقلةً مساء ذلك اليوم، وكأنّ الغيومَ تحشدُ حزنًا يشبِه ما يختبئ في صَدر رانيل.
يَمشي ببطءٍ في شوارِع المدينة الجديدة، لا يعرِف إن كان يهرُب من شيء أم يبحث عن شيءٍ ضائع.

كانت أثير قد ابتعدت منذ أسابيع، لكنّ آثارها لم تبتعِد من داخله.
كلماتُها، أسئلتُها، ابتسامتها، تتردّد كصوتٍ يرفض أن يختفي.
كن ما لم يكن يقوله بصوتٍ عالٍ، هو أن أثير كانت أكثر من مجرد فتاة أحبّته.
كانت النسخةَ الأكثر وضوحًا من الحياة الّتي كان يمكن أن يعيشها لو كان قلبه أقلَّ خوفًا، ولو أنّ الماضي لم يكن حارسًا يقف بينه وبين كلّ خطوةٍ يتقدّم بها.

كانت أثير —لمن عرفها— فتاةً لا تستسلم بسهولة.
كانت تُشبه المطر ذاته:
هادئةً حينًا، جارفةً حينًا آخر، ومُصرّةً على أن تترك أثرًا مهما قاومها الآخرون.

وفي حضورها، كان يشعر بشيءٍ يشبه الطمأنينة، ذلك النوع من الصدق الّذي يُخيفك، لأنّه حقيقيٌّ جدًا.

ومع أول قَطرةِ مطر، تذكّر آخر يومٍ جمعه بها.
ذلك اليوم الّذي لم يملك فيه شجاعةَ قول الحقيقة كاملة.
اكتفى بالابتعاد. وكأنَّ الصمتَ يمكن أن يكون تفسيرًا.
كان يهمس في داخله:
«لِماذا لا أستطيع أن أكون طبيعيًّا؟ لماذا لا أستطيع أن أترك الماضي؟ أو أحبَّ مَن يُحبّني؟»

المطرُ يثقل كتفيه، والشارع يزداد عتمة، وفي العتمة، بدأ يرى ملامح لا يُفترض أن تكون موجودة.

رآها. ميلار. كما كانت دائمًا:
واقفة تحت المطر، بثوبٍ أبيض، وشعرٍ مُلتصقٍ بخديها، تبتسم له بتلك الابتسامة الّتي أنهكَته لسنوات.
لم تكن حقيقة. كان يعرف ذلك. كان مجرد ظلّ.
ظلٌّ لم يعرف كيف يطرده.

قالت بصوتٍ لم يسمعه أحدٌ سواه:
«ما زلتَ أنتَ لم تتغيّر يا رانيل.»

ردّ هامسًا :
«اِرحلي... يكفي.»
«أنا التي يجب أن تَرحل؟ أم ذلك الجزء منك الّذي يُصرّ على أن يُبقيني؟»
أغمض عينيه، كأنّه يريد أن يمحوها من رأسه، لكنّها اقتربت أكثر.
«تُحبّ أثير، أليس كذلك؟»
فتح عينيه بسرعة. كان صوته مكسورًا حين قال:
«أريد... أن أحبّها. لكنّي لا أستطيع.»
«لأنّك ما زلتَ هنا.»
وضعت يدها على صدره.
«وأنا... هنا.»

ابتعد خطوةً للخلف. لم يكن يعرف إن كانت دموعه تختلط بالمطر، أم أنّه لم يعد يميّز بينهما.
«أنتِ لستِ حقيقية، لم تعودي جزءًا من حياتي، لماذا ما زلتِ هنا؟»
ابتسمت ميلار ابتسامةً هادئة:
«لأنّك لم تُطلِق سراحي.»

ثم تلاشت كما تتلاشى الذّكريات حين تُطفئها الحقيقة.
لكنه لم يشعر بالتحرّر، شعر بالفراغ فقط.

جلس على طرف الرصيف، رفع يديه لوجهه، وقال بصوتٍ خافتٍ خائف:
«أثير... آسف. لو كنتِ هنا، ربما، كان يمكن أن أبدأ.»
لكنها لم تكن. كانت بَعيدة، وبعيدًا عنها، كان يبدو وكأنّه يُعيد غرقه الأول.
ولم يكن يدري أنّ أثير في مكانٍ آخر، كانت تمرّ بالليالي ذاتها، لكن بطريقتها المختلفة.

كانت تقف أمام نافذتها كلّ مساء، تراقب المطر الّذي تُحبّه، وتسأل نفسها:
«هل أخطأتُ حين أحببتُه؟ أم أخطأتُ حين ظننتُ أنّه يستطيع أن يُحبّ؟»

كانت قويّة، نعم، لكن قوّتها لم تكن تعني أنّها لا تشعر بالوجع.
كانت تُخفيه بابتسامتها الّتي يعرفها الجميع، وبحكاياتها الصغيرة الّتي تُخفي خلفها انهيارات لا يراها أحد.
وحده رانيل كان يقترب من رؤية ذلك الجانب، لكنّه ابتعد بعد أن ألتمسه.

عاد إلى غرفته تلك الليلة، والبرد يلتفّ حوله كما يلتفّ الندم.
جلس على الأرض، أسند رأسه إلى الجدار، وأحسَّ — للمرة الأولى — أنَّ شيئًا داخله ينكسر بشكلٍ لا يمكن إصلاحه.

تكلم مع نفسه بصوتٍ مسموع:
«الذّي لا يعرف كيف يُحبّ لِماذا يريد أن يُنقِذ أحدًا؟»
لم يُجِب. لم يكن هناك أحد ليجيب.
نظر من النافذة، وكان المطر ما يزال يهطِل بعنف.
وشعر أن كلّ قطرة هي شيءٌ يسقط من داخله هو، لا من السّماء

في تلك الليلة، فهم الحقيقة التي هرب منها طويلًا:
بم يكن يحتاج إلى بدايةٍ جديدة، ولم يكن يحتاج إلى مدينةٍ أخرى، ولا إلى حبٍّ جديد...
كان يحتاج أن يُواجه نفسه.
وكانت تلك المواجهة، هي المطر الحقيقي الّذي أغرقه، لا السماء.

وهكذا...
نام على الأرض، مبلّلًا، مُتعبًا، مُنهارًا، وهمس آخر ما استطاع قوله :
«أثير... سامحيني. أنا لم أعد أثق بنفسي فكيف أثق أنّني سأُحسن لكِ؟»
ولم يسمعه أَحد.
إلّا المطر الّذي استمرّ في الهطول طوال تلك الليلة الثقيلة.

تكلم مع نفسه بصوتٍ مسموع:
«الذّي لا يعرف كيف يُحبّ لِماذا يريد أن يُنقِذ أحدًا؟»
لم يُجِب. لم يكن هناك أحد ليجيب.
نظر من النافذة، وكان المطر ما يزال يهطِل بعنف.
وشعر أن كلّ قطرة هي شيءٌ يسقط من داخله هو، لا من السّماء

في تلك الليلة، فهم الحقيقة التي هرب منها طويلًا:
بم يكن يحتاج إلى بدايةٍ جديدة، ولم يكن يحتاج إلى مدينةٍ أخرى، ولا إلى حبٍّ جديد...
كان يحتاج أن يُواجه نفسه.
وكانت تلك المواجهة، هي المطر الحقيقي الّذي أغرقه، لا السماء.

وهكذا...
نام على الأرض، مبلّلًا، مُتعبًا، مُنهارًا، وهمس آخر ما استطاع قوله :
«أثير... سامحيني. أنا لم أعد أثق بنفسي فكيف أثق أنّني سأُحسن لكِ؟»
ولم يسمعه أَحد.
إلّا المطر الّذي استمرّ في الهطول طوال تلك الليلة الثقيلة.

نَجاةٌ تَتَعَثَّرُ بِظِلِّ الذّاكرة

الفصل الخامس عشر

وهج رحيل أبدي

نَجاةٌ تَتَعَثَّرُ بِظِلِّ الذّاكرة

"في طريقِ النَّجاةِ، تبقى الذّاكرةُ ظلًّا لا يَزولُ."

عاد رانيل من سفره القصير كما لو كان يعود من حربٍ خاسرة.
كان المشهد يشبه جنديًّا يخطو خارج ساحة معركةٍ لم ينتصر فيها، ولا خسرها بالكامل، لكنّه خرج منها مُثقلًا بما يكفي ليعرف أنّه ليس كما كان.
لم يكن الغياب رحلة، بل كان محاولة بائسة للهروب من شيءٍ يسكن داخله أكثر مما يسكن خارجه.
كان يشعر كلّما خطا خطوة، أنّ شيئًا ينهار في صدره، وكأنّ الطريق نفسه يعيد تشكيل جراحه القديمة.
ما إن وطئت قدماه أرض المدينة، حتّى تسربت إلى صدره ذكرى واحدة...
ذكرى ميلار.

لم يكن يحتاج أن يراها أو يسمع اسمها؛ مجرّد عودته إلى المكان الّذي عرفها فيه كان كافيًا لإحياء كلّ الصمت الّذي تركته خلفها.
مشهدها وهي تدير ظهرها له. ضحكتها الّتي كان يعتقد أنّه نسيها.

اللحظة التي أدرك فيها أن الزمن لا يداوي كلّ شيء كما يقولون.
كانت هذه الذكريات تنسلّ داخله بنعومة خبيثة، كأنّها ماءٍ يتسرّب عبر الشقوق الّتي حاول إغلاقها عبثًا.
وقف في المطار لحظة طويلة، لا يتحرك. لم يكن عاجزًا عن الحركة بقدر ما كان خائفًا من الحركة نفسها. وكأنّه يخشى أن يخطو خطوة واحدة تعيده إلى نفس الدوامة الّتي هرب منها.
كان يشعر أنّ الهواء أثقل مما ينبغي، وأنّ المدينة تعرفه أكثر مما يريد.
اقترب منه أمير، وقد كان بانتظاره منذ ساعات، وقال بصوتٍ حاول قدر استطاعته أن يجعله خفيفًا:
«عُدتَ أخيرًا... كيف كان السفر؟»
لم يجب.
نظر إليه بوجهٍ شاحب، ثم تابع سيره كأنّ السؤال لم يُطرح.
كان ذلك الصمت امتدادًا لسفره، لرحلته الداخليّة الّتي لم تنتهِ بعد.
كان أمير يعرف هذا الصمت يعرفه جيدًا. هو الصمت الّذي يسبق الانهيار دائمًا.
ركبا السيارة، ولم يتبادلا كلمة واحدة. كانت الطريق تمتدّ أمامهما كأنّها ليلٌ طويلٌ لا ينتهي.
حتى قال أمير، بعد محاولات كثيرة للصبر:
«رانيل... أنتّ لست بخير، وأنتّ تعرف ذلك.»

فأجاب رانيل:
«أنا؟»
ثم ضحك ضحكة قصيرة باهتة. ضحكة لا تحمل فرحًا ولا سخرية، بل انهيارًا متنكرًا في هيئة صوتٍ خافت.
«أنا بخير... فقط متعب.»
ردّ عليه أمير:
«متعب؟! أنت تنهار أمامنا منذ شهور! هل تظنّ أنّ السفر سيعيدك؟»
لم يرد.
وضع يده على النافذة، وتنهد ببطء، ثم قال كلامًا جعل قلب أمير يهبط:
«أمير... لا شيء يعيد ما ذهب.»

كانت الكلمات أشبه ببابٍ يُغلق، لا على ذكرى فحسب، بل على رغبة في النّجاة.
أوقف أمير السيارة على جانب الطريق، التفت إليه فجأة، وقال بنبرة حادة:
«إلى متى ستظل هكذا؟ إلى متى ستبقى أسيرًا لشيء انتهى؟»
رفع رانيل رأسه ببطء، وقال بصوتٍ متوتر:
«انتهى؟ هل تظنّ أنّه انتهى؟ الانتهاء شيء نقرره نحن شيء نغلقه بإرادتنا، وأنا لم أغلق شيئًا.»

قال أمير:
«إذن افتح شيئًا آخر! افتح بابًا جديدًا، دع أحدًا يقترب، دع أحدًا يحبك.»
ابتسم رانيل بمرارة:
«هناك من حاول... أليس كذلك؟»
وكان يقصد أثير.
وكان يدرك في تلك اللحظة أنّه هو الّذي أغلق الباب في وجهها.
لكن أمير لم يجب، لأنّه يعرف أنّ الجرح أعمق من أن يُفتح الآن.

وصلا إلى المنزل، وهناك ظهرت لارين.
كانت تقف عند الباب، وعيناها تحملان قلقًا أثقل من قلق الجميع.
كانت تشعر أن شيئًا ما في داخله يتداعى ببطء، وأنّه ينهار من الداخل بطريقة لا يسمعها أحد.
قالت لارين بصوتٍ هادئ:
«رانيل... اشتقنا إليك.»
لم يبتسم. لم يرد. مرّ بجانبها وكأنّه لا يراها.
ولكنّ قلبه ارتجف لحظتها؛ شيء داخله خاف أن يتكلم كي لا ينكسر أكثر.
فقالت بهمسٍ مكسور:
«أنت تعود، لكنك لست هنا.»

توقف عند الدرج، التفت إليها قليلًا، وقال بصوتٍ خافت:
«أنا أحاول يا لارين... صدّقيني، أحاول.»
تقدمت نحوه خطوة، وقالت:
«كلنا نحاول من أجلك. لكنّك وحدك تستطيع أن تنقذ نفسك.»
لم يعلّق.
صعد إلى غرفته، وأغلق الباب خلفه بقوّة جعلت لارين تضع يدها على قلبها.
كان صوته يشبه بابًا يُغلق على روحٍ تبحث عن منفذ.

في المساء، اجتمع أمير ولارين أمامه.
كان يجلس على الأريكة، ينظر إلى الفراغ.
وكأنّ الفراغ نفسه بات أكثر أمانًا من الناس.
قال أمير:
«اسمع يا رانيل... لا يمكن أن نستمر هكذا. أنت تتلاشى.»
رد رانيل ببرود:
«اتركوني، أنا أتحمل ألمي كما أستحق.»

قالت لارين فجأة، بنبرة لم تستخدمها من قبل:
«لاا!! لن نتركك تغرق، حتّى لو ظننتَ أنّ الغرق قدر.»
التفت إليها بحدّة:
«لا تفهميني... لا أحد يفهمني.»

اقتربت أكثر، وقالت:
«فهمتك أكثر مما تفهم نفسك. أنتَ رجل يحمل حزنًا أكبر من عمره. رجلٌ ما زال واقفًا عند لحظة واحدة لا يريد أن يغادرها.»
فجأة صرخ:
«لم أغادر لأنّها لم تغادرني!»
ساد الصمت، صمتٌ مؤلم.
صمت يشبه اعترافًا لم يجرؤ على قوله من قبل.
جلس على الأرض، ودفن وجهه بين يديه، وبدأ جسده يرتجف.
قال أمير بصوت خافت:
«رانيل... ما الّذي حدث هناك في السفر؟»
رفع رأسه ببطء، وقال:
«هناك... أدركتُ شيئًا.»
سأله أمير:
«ما هو؟»
قال رانيل:
«أنّني مهما هربت هناك اسم واحد يتبعني، ينهشني، يكسرني، يعيدني طفلًا عاجزًا.»
سأله أمير:
«ميلار؟»
أغلق رانيل عينيه بقوّة، وكأنّ الاسم ألم جسدي:
«نعم... ميلار. لا أستطيع لا أستطيع التخلص منها.»

وضعت لارين يدها على كتفه، وقالت:
«لكنّها رحلت يا رانيل وأنت تعلم ذلك.»
فتح عينيه، وقال الجملة التي هزّت الجميع:
«زواجها من رامي، أُعلِن اليوم.»
تبادلت لارين وأمير نظرة صادمة.
قال رانيل:
«عرفتُ الخبر فور وصولي. كانت تلك اللحظة، اللحظة التي شعرتُ فيها أن شيئًا انكسر نهائيًا.»
اقتربت لارين، وجلست أمامه مباشرة، وقالت:
«رانيل... أنتَ لم تخسرها اليوم. أنتَ خسرتها منذ زمن. اليوم فقط اعترفتَ بذلك.»
هزّ رأسه، وبدا وكأنّه يحاول أن يتنفس تحت الماء.
«لكنّي لا أعرف كيف أعيش بعد هذا.»
قال أمير:
«لا تعِش من أجل أحد. عش من أجل نفسك. نحن هنا ولن نتركك.»

فجأة، ضرب رانيل بيده على الأرض، وقال بصوتٍ مهزوم:
«أريد أن أتوقف عن الألم! اريد أن أتوقف!»
ثم انهار تمامًا، بكى كما لم يبكِ في حياته.

كان بكاؤه أشبه بانهيار جبل؛ صامت في بدايته، ثم ينفجر دفعة واحدة.
بكى بصوتٍ خافت لكّنه موجع موجع حدّ الارتجاف.
لم يقاطعه أحَد.
اكتفت لارين بوضع يدها على رأسه، وأمير جلس بجانبه بصمت.
وبينما كان يبكي، كان المطر في الخارج يضرب النوافذ بعنف، كما لو أنّ السماء تبكي معه، أو ربّما تبكي عنه.

بعد ساعات من الانهيار، رفع رأسه، وقال بصوت ضعيف:
«هل يمكن أن أشفى؟»
قالت لارين:
«نعم، إذا أردتَ أنت ذلك.»
سألها:
«وإن لم أستطع؟»
فأجابته:
«سنحملك نحن حتّى تستطيع.»
أغلق عينيه.
وبدا وللمرة الأولى أنّه يريد النجاة حقًا، حتى لو كان لا يعرف كيف.

الفصل السادس عشر

وهج رحيل أبدي

ظِلٌّ يَمْتَدُّ في حَيَاةٍ أُخْرَى

"الماضِي لا يَغادرُنا أبدًا، بل يترُكُ أثرَه في حياةٍ أُخرى."

مَضَت شُهورٌ طويلة وثَقيلة منذ أن غابَت مِيلار عن حياة رانيل بشكلٍ قاطعٍ.
شُهورٌ لَم يعتَد فيها قلبه الوحدة، ولم يَستطع فيها أن يَسحب روحه من الأماكن الّتي كانت تَجمعهما.
كان يظنّ أنّ البُعد سَيمحوها لكنّه اكتشف أنَّ الشوق ليس وقتًا يمرّ، بل جرحًا يظلّ يستيقظ كلّما حاول أن يَنام.

أيامُه أصبحت مُرتَبِكة؛ يَستيقظ بذاكرة مُزدحمة، ويَنام وقلبه يجري خلف صورةٍ لا تَعرف أنّها ما زالت تسكنه.
تخبّطٌ لا يُشبه ما عاشه من قبل، كأنَّه يُحاول أن يَجمع نفسه من بين حُطامٍ لا يَعرف كيف تكسّر.

كان يَسير في الطُّرقات وكأنّ كل شيء يذكّره بها؛ وقعُ خطواتِ امرأةٍ تشبهها، ضحكةٌ خافتة، ظلّ فتاةٍ تحمل ملامحها.
وكلّما ظَنّ أنه تجاوز، عاد الاشتياق ليكسر ما بنَاه في شهورٍ كاملةٍ من الصبر.

كان يَسير في الطُّرقات وكأنّ كل شيء يذكّره بها؛ وقعُ خطواتِ امرأةٍ تشبهها، ضحكةٌ خافتة، ظلّ فتاةٍ تحمل ملامحها.
وكلّما ظَنّ أنه تجاوز، عاد الاشتياق ليكسر ما بنَاه في شهورٍ كاملةٍ من الصبر.
وهكذا، بين اشتياقٍ لا يَهدأ، وقلبٍ لم يَعرف طريق النسيان، كان رانيل يَسقط في نفسه مرارًا، في الوقت الّذي كانت فيه ميلار تُمضي حياتها في مكانٍ آخر، حياةٌ تُشبه الاستقرار لكنها لا تُطفئ أثر الماضي.

هنا يبدأ فصلها.
الماضي الّذي يظلّ يفتح نوافذه حتّى لو أُغلِقَت الأبواب.
لم تَعد مِيلار تُشبه الفتاة الّتي كانت تضحك بلا سبب، أو تبكي لأنَّ قلبَها ضاق فجأة.
الأعوامُ تُغيّرنا، تُنضجُنا، لكنّها و بشكلٍ خفيّ تترُك في أعماقِنا مَساحات لا يبلغُها أحد.
وميلار رغَم كلّ ما حاولت أن تُخفيه، كانت تَعرِف أنّها تسير في طريقٍ يُشبهها ظاهريًّا، لكنّه لا يُطفئ في قلبها تلك الغُرفة القديمة الّتي لَا يدخلها أحد.
رامي جاء إلى حياتها كهدوءٍ طويلٍ لم تتعوّده.
رجلٌ يُشبه الجلوسَ قُرب شرفةٍ في نهارٍ صيفيّ، لا يرفع صوتَه، لا يَسأل كثيرًا، ولا يُجيد لعب دور البطل .

لكنَّه يتقِن أمرًا واحدًا: **الطّمأنينة**.

كان يمرُّ بعينيه على تَعبها دون أن يَسأل، وكأنّه يعرف أنّ السؤالَ أكبرُ من أن يُجابَ عليه.
لم يُشبه رامي تلك العلاقاتِ الّتي تشتعِل فجأةً ثُم تنطفئ سريعًا، كان هادئًا جدًّا، هدوءًا يُخيفهَا أحيانًا.
ومع ذلك اختارته.

كانت تَبحث عن حياةٍ لا تَنهارُ مع أوّل اختلاف، وعن رجلٍ لا يعلّق قلبَه برقّة مزاجها، ولا ينسحب عند أولِ تعبيرٍ خاطئ.
كان زواجًا أقرب إلى اتفاقٍ داخليّ؛ اتفاقٍ على الاستمرار، لا على الغرق في العواطف.

وعندما جاءت «ميرا»، شعرت بأنّ الله يضع في حضنها سببًا جديدًا للحياة.
ابنةٌ صغيرة بملامح دافئة، تبتسمُ كأنّ العالمَ لا يحمل وجعًا.
كانت تنام فوق صدرها بطمأنينةٍ كاملة، وكأنّ ميلار لم تعرِف يومًا كيف يُوجعها الحبّ.
ومع ذلك كانت ترى في ميرا شيئًا يُشبه الماضي بطريقةٍ غريبة، تلك العينان الواسعتان كانت تُذكّرها بشخصٍ ما، بصوتٍ خافتٍ في ذاكرتها، بضحكةٍ اختفت منذ سنوات، لكنَّها لم تمحُ أثَرَها.

في كلِّ ليلةٍ، حين ينام الجميع، كانت ميلار تجلس عند نافذتها، تُمسك كوب قهوة صار بلا طَعم، وتترك رأسَها يستند على حافّة الزجاج البارد.
وهناك كان يَظهر.
رانِيل.
كان يقترب دائمًا من ذاكرتها كما يقترب المطر قبل أن يَسقط:
بهدوء... ببطء... وبثقلٍ تعرِف أنّها لا تستطيع التخلّص منه.
كانت تتساءل:
هل أحببتُه حقًّا؟ أم أنّني لم أفهمه كما يجب؟
كانت تعرِف أنّها لم تُعطه ما كان يستحقّه.
كانت خائفة، دائمًا خائفة.
خائفة من الارتباط، من الفقد، من أن تَعد أحدًا بما لا تعرِف إن كان قلبُها قادرًا على حفظه.

أما رانيل كان مُختلِفًا. كان يُحبّ بطريقةٍ مُرهِقة، تُشبه التمسّك بشيءٍ يغرق. لم تستطع مُجاراته. لم تستطع مواجهته.
ولم تستطع أن تُصارح نفسها بصدق مشاعرها إلّا بعد أن غادر.
كان جزءًا من تكوينها، من نضجها، من أخطائها الأولى.
ليس سرًّا تخون به زوجها، ولا حبًّا تحنّ إليه، بل ظلًّا لروحٍ مرّت بها، وتركت أثرًا لا يُشبه أيّ أثرٍ آخر.

وبينما ميرا تكبر، ورامي يمضي في حياته المستقرّة، كانت ميلار تبني جدارًا داخليًّا يحفظ البيت لكن الجدران لا تمنع الصدى.
أحيانًا، كان يكفي صوتُ أغنيةٍ قديمة، أو مرورُ رجلٍ يُشبه تفاصيله حتّى يعود كلّ شيء.
وكانت تكتب في دفترٍ صغير تُخبّئه في خزانتها:
"أنا لا أفتقده، لكنّني أفتقد نفسي القديمة معه."
ثم تُغلق الدفتر بسرعة، خوفًا مِن أن يَقرأه أحد.
وفي ليلةٍ هادئة، كتبت:
"هناك أشياء لا تعود لكنّها لا تذهب."
ثم مسحت دمعةً لم تَعرِف لمن كانت:
لنفسها؟ لرانِيل؟ أم لامرأةٍ تحاول أن تُمسك بالحاضر، بينما يَسحبها الماضي من طَرف قلبها كلّما هدأ الليل؟

هكذا كانت ميلار...
تتقدّم... لكنّها لا تركض.
تعيش... لكنّها لا تنسى.
وتسير في حياتها دون أن تجرؤ على الالتفات خلفها مرّة أخرى.

سَنَدٌ يَنْهَضُ

بالقلب

الفصل السابع عشر

وهج رحيل أبدي

سَنَدٌ يَنْهَضُ بِالقَلْبِ

" سندٌ صادقٌ يعلّمُ القلبَ كيفَ يَنهضُ رغمَ الألمِ."

لم يَعد رانيل ذاك الرّجلَ الّذي كان ينهضُ كلّ صباحٍ وهو يخبر نفسهُ أنّ الغدَ سيحمل له بادرة صلحٍ مع الحياة.
كان يعرف أنّ الخيبات لا تغادرُ دفعةً واحدة، وأنّ القلبَ حين يَتكسّر، لا يعودُ كما كانَ، بل يسيرُ محمّلًا بما انكسرَ منه.

ومع ذلك كان يَمضي، يمضي كأنّ خُطاهُ تبحثُ عن ظلٍّ ألين، وعن فراغٍ لا يذكّرهُ بما خَسِرَه، وعن يدٍ تمتدّ إليه من غير سؤال.
وفي إحدى اللحظاتِ الّتي يتصدّعُ فيها الإنسانُ بصمتٍ لا يسمعه أحد، ظهرت لارين.

لم تدخُل حياتهُ بضوءٍ كبير، بل بحضورٍ خجول، بصوتٍ منخفض، وبطلبٍ مُتواضِع: أن يُساعدَها في دِراستِها.

كانت المكتبةُ شاهدةً على ذلك كلّه؛ على الضوء الّذي ينسابُ على ملامحِها فيسكبُ هدوءًا غريبًا، وعلى تلك النظرةِ الهادئةِ الّتي كانت تمنحه سكينةً لم يعرف سرّها.

وفي إحدى الأمسيات، رفعت رأسَها إليه وهمست:
"أخشى أن أكون أثقلتُ عليك أنت تعاملني وكأنّي أهمّ ممّا أنا عليه."
رَدَّ بصوتٍ خافت، والنظرُ ثابتٌ على الورقة الّتي لم يَعد يراها:
"لا شيءٍ يُثقِلُ على من حمل ما هو أثقلُ من قلبه، أنتِ لستِ عبئًا يا لارين، أنتِ فُسحةُ راحة."
تردّدت لحظة ثم قالت:
"وأنت؟ أَلَا تحتاجُ أنت مَن يُخفّف عنك؟"
ابتسم ابتسامةَ رجلٍ يعرف أنّ الحياةَ لم تنصِفه، لكنّها أيضًا لم تُغلق البابَ كلَّه أمامه.
"ربّما، لكن وجودك هنا يكفي. يكفيني أنّني لا أسمعُ صوتي وحدي."

وتحوّلت جلساتُ الدراسة شيئًا فشيئًا إلى روتينٍ يملأ حياتَهما.
مرّت أيّام، ثم أسابيع، ثم أشهر، وأصبح وجودُها بجانبه جزءًا من يومه، لا يسأل متى بدأ ولا لماذا استمرّ.
ثم جاء يومٌ دخلا فيه معًا عالمَ التمريض.

كان المستشفى عالمًا مختلفًا؛ صاخبًا، مليئًا بالتعب، لكنّه جمعهما بطريقةٍ لم يتوقّعاها.

عمِلا كأنّهما فريقٌ واحدٌ يتقنُ لغة الإشارة دون اتّفاق:
هي ترفع ملفَّ المريض، وهو يأخذه قبل أن تنطق.
هو يطلُب الأدوات، فتكون بين يديها جاهزة.
هي تتعب، فيكفي أن ينظر إليها ليخِفّ الاضطرابُ في عينيها.
وهو يَنهار، فتكفي لَمسةٌ على كتفه ليعود واقفًا.

كبرت الرابطةُ بصمت، كما تكبر الأشجارُ في الليل.
ومضت السنةُ الأولى مع بعضهم؛ تعلّما خلالها معنى الثقة،
ومعنى أن ينجو الإنسان لأنّ أحدًا كان قريبًا بما يكفي.
ثم جاءت السنةُ الثانية؛ فصار كلٌّ منهما يُساند الآخر في العمل
وفي الحياة أيضًا.

كانت تستمع لقصصه القديمة بصبرٍ يشبه الاحتواء، وكان يطمئنُّ
لوجودها كمن وجد أرضًا مستقِرّة يضع عليها إرهاقَه.
وفي السنة الثالثة؛ أصبحت اللحظات الصغيرة ذات قيمة كبيرة:
نظرةُ امتنان، ابتسامةُ تعب، كلمةٌ تُقال في وقتٍ لا يحتمل الكلام.
ثم السنة الرابعة؛ باتا يعرفان أنّ ما بينهما ليس مجرّد زمالة.
ثمّة شيءٌ ينمو لا يُسمّى، ولا يُفسَّر؛ وعدٌ صامتٌ بأنّ أحدهما لن
يترك الآخر في العاصفة.
شعورٌ لا يُقال لكنّه يُرى، ويلمَس، ويزداد رسوخًا كلّما ضاقت
بهما الحياة.

وفي ليلةٍ من ليالي الطوارئ المزدحمة، رأى رانيل لارين على الكرسيِّ المعدنيّ تُغالِبُ دموعَها.
اقترب هامسًا:
"لارين... ما الّذي أثقَل قلبكِ الليلة؟"
قالت وهي تحاول إخفاء رجفتها:
"أخشى أن أكون هشّة، أخشى ألّا أصل، ألّا أستحقّ ما أحلم به."
جلَس بقربها وقال بلطفٍ لا يُشبه إلّا صدقَه:
"الهشاشة ليست عيبًا، العيب أن نخافَ من طلب السَّند، وأنا هنا، فلا تخافي."
رفعت عينيها إليه، وفي صوتها اعترافٌ رقيق:
"ومَن يَسندك أنت يا رانيل؟ مَن يحميك من نفسك؟"
تنفّس طويلًا ثم قال:
"وجودك وحده يكفيني."
كان ذلك اعترافًا لم يُكمَل، ولم يحتج أن يكمَل. فهي فهمته قبل أن يفهمه هو.

ومع مرور السنوات، صارت الرابطةُ بينهما تزداد رسوخًا:
كبرت كما يكبر الضوءُ في آخر النفق، وثبتت كما يثبت جذعُ شجرةٍ لا تنحني للرياح.
صار رانيل يرى فيها المساحةَ الوحيدةَ الّتي يُسندَ عليها روحَه، وصارت لارين ترى فيه الدَّعم الّذي لا يتخلّى عن أحد.

لم يكن حبًّا، ولم يكن صداقةً عابرة، كان شيئًا أعمق من الاثنين: رابطًا وُلد من الصدق، وتربّى بالصبر، ونَما لأنّ كلًّا منهما كان يَرمّم الآخر بدل أن يجرحه.

بعد مشوار طريقٍ متعب، تخرجت لارين من الثانوية بمعدلٍ جيد و كانت فرحة رانيلً كبيرة بها، لأنّه كان يرى أنّ هذا النجاح سيكون بداية خيرٍ ترافق أيام لارين طالما اجتهدت كثيرًا في دراستها.
فرحة رانيلً بنجاحها لم تكن مجرد فرحة، إنّما سعادة عامرة نَمت في قلبه كما ينمو الشجر في الحديقة.

كان يسبق نجاحها بأيام، ذكرى ميلادها، احتفل بها بطريقته الخاصة، حضرّ طاولة في مقهى جميل يطلع على الطبيعة، واحضر باقة من الفراشات الّتي تشبهها بلونٍ بنفسجي، كان يعرف مسبقًا بأنّها تحب هذا اللون كثيرًا، وكانت على تلك الطاولة المزيّنة بالورود، كيكة الشوكولا الشهيّة، وبعض الهدايا الّتي احضرها معه.

نظرت إليه نظرة إعجاب وقالت:
"كلّ هذا لأجلي... فعلت من أجلي الكثير يا رانيل، أنا ممتنةٌ لك."

ابتسم رانيل قائلًا:
"بل أنا مَن عليه شكرك يا لارين، كنتِ بجانبي و ما زلتِ، فأنتَ جزء من روحي."

تبادلا أطراف الحديث، وسعادة تغمر قلب كلّ منهما.

حين نظر رانيل إلى السنوات الّتي مضت، أدرك حقيقةً واضحة:
ليس دائمًا أن يمنحنا القدرُ ما نُحبّ، لكنّه يمنحنا أحيانًا مَن يفهمنا، مَن يلتقط صوتَ انكسارِنا ولو لم نتكلّم، ومَن يقف بقربنا حين يعجز الطريقُ عن حملنا.
وكانت لارين ذلك الوقوف، ذلك السَّندُ الّذي لم يأتِ صدفة، ولم يذهب رغم التعب.

لم تَعدْ مجرّد فتاةٍ جاءت تطلبُ المساعدة، بل أصبحت الجزءَ الأهدأ في حياته، والدَّرب الّذي وجد فيه نفسهُ من جديد.

بَقايا رَجلٍ لَم يَكتمل

الفصل الثامن عشر

وهج رحيل أبدي

بَقايا رَجلٍ لَم يكتمِلْ

" ظلّ رجلٍ لم يُكمل حياته يتوارى بين
أطياف الماضي، يهمس بصمت الألم."

مرّت الليالي دون معرفة الواقع المرير الّذي ينتظره، وفي ليلةٍ لم تكن يشبه ليل المدينة، كان أثقل، كأنّ الغيم يضغط فوق صدره مباشرة، وكأنّ الهواء نفسه يتوقّف كي يسمع ما لن يقوله أحد.
وقف رانيل في منتصف غرفته الصغيرة، ينظر حوله وكأنّه يرى المكان لأوّل مرّة، أو لآخر مرة.

المدينة الّتي أحبّها، وتنفّس طرقاتها، وحملها في قلبه كما يحمل اليتيم آخر صورة لأمّه، صارت مدينة لا تجيبه
كأنّها تعرف أنّه ينوي الرحيل فصمتت.
فتح حقيبته ببطء. وضع ثيابه، كتبه، دفتر ملاحظاته الّذي لم يسمح لأحد بلمسه، ثم توقّف فجأة، كأنّ يداً أمسكت كتفه من الخلف.
هل سيغادر حقًا؟
أغلق الحقيبة، جلس على السرير، وانحنت رأسه إلى الأمام.
لم يكن يعرف إن كان يجب عليه أن يبكي أم يضحك من نفسه.
وهنا بدأ ذلك الصراع القديم...

العقل:
«كفى يا رانيل... لقد انتهى كلّ شيء. المدينة لا تحمل لك سوى الخسارات، ارحل.»
القلب:
«وكيف أرحل عن الأماكن التي تحملها؟ هل تُترَك الرّوح بسهولة؟»
العقل:
«هي لم تَعُد، تزوّجت، وأكملت حياتها. أنت آخر من ما زال واقفًا أمام بابٍ مغلق.»
القلب بمرارةٍ ناعمة:
«وما ذنبي إن كان الباب مغلقًا؟ هل أملك أن أُطفئ ما يشبهها في داخلي؟»
العقل بقسوةٍ حادّة:
«تستطيع النجاة إن أردت، تستطيع أن تنقذ ما بقي منك.»
القلب:
«نجاةٌ خلفها موت آخر، هي كانت البداية، وكانت الطريق، وكانت النهاية الّتي لم أصلها.»
العقل يحاول أن ينهض به:
«هناك حياة خارج هذا المكان، أصدقاء، مستقبل، سنوات لم تعشها بعد.»

القلب يبتسم بحزن:
«أيّ مستقبلٍ بلاها؟ هل رأيت يومًا قلبًا يبني الغدَ دون أن يلتفت إلى الأمس؟»
العقل:
«أنت رجل، يجب أن تُشفى.»
القلب:
«أنا رجل، لكنّي لستُ حجرًا.»
العقل يهمس هذه المرّة بدل أن يصرخ:
«إن بقيت، ستموت.»
القلب بصوتٍ خافت:
«وإن رحلت، سأعيش نصفًا أيهما أقسى؟ الموت أم النصف؟»
ظلّ الحوار يدور داخله كأنّه معركة لا نهاية لها، وكلّما انتصر العقل لحظةً انتصر القلب ألف مرّة.
لأنّ الذّاكرة كانت أقوى من المنطق، ولأنّ الحنين كان أثقل من الحكمة.

لم يكن يحتاج لرؤية ميلاركي يشعر بها.
كانت تظهر في ظلّ الضوء الخافت على الحائط، في نسمة باردة تمرّ من النافذة كأنّها تمرّ بقلبه، في رائحة المطر الّتي أحبّتها وكانت تقول له دائمًا:
«المطر يرمّم ما لا نجرؤ على إصلاحه.»

حتى الأماكن تآمرت ضده، المقهى الّذي كانت تجلس فيه، الشارع الّذي سارا فيه يومًا، الشجرة الّتي وقفت عندها تبكي في إحدى لحظات ضعفها كلّها تحوّلت إلى طيفٍ يمشي معه.
ولا شيء أقسى من ذاكرة لا ترحم.

كان الليل ينتصف حين خرج من البيت، المدينة نائمة، إلّا هو سار على الطريق الطويل الّذي تعوّد أن يمشي فيه حين يحتار قلبه، كانت أوراق الخريف تتساقط بصوت خفيف يشبه تنهيدة بعيدة.
تُذكّره أنّ السقوط قد يكون جميلًا، وأليمًا في الوقت نفسه.
رفع رأسه نحو السماء، لمع الضوء فوق الغيمات كأنّ المطر يتحضّر للنزول.
همس لنفسه:
«لو كان القلبُ شجرة، لسقطت كلّ أوراقي مذ رحلت.»
عاد لبيته.
فتح الدرج السفلي ببطء شديد، كمن يفتح قبرًا يحتفظ فيه بشيء لم يدفنه تمامًا.
وجد الصندوق البني الصغير.
أحبّه كطفل، وكرهه كرجل يعرف أن ما فيه لن يعود.
فتحه.
كانت ساعة قد أهدتُه أياها كما هي، لحظة واحدة منها كان قادرًا على أن يعيد له عمرًا كاملًا.

وورقة كتبتها له قبل سنوات بخطّها المرتجف يوم تخرّجه:
«فخورَة بك، لا تتغيّر.»
ضحِكَ.
ضحكة قصيرة تشبه الألم أكثر مما تشبه الفرح.
ثم وجد الصورة تلك الّتي كان يمسكها حين يشتاق ويكذب على نفسه ويقول إنّه بخير.
لمس حوافّها بإصبعه كأنّه يلمس وجهها.

جلس على المكتب، أمسك القلم، لم يفكّر بل ترك قلبه يمسك يده.
وكتب رسالة لميلار:

ميلار...

«لا أعرفُ من أين أبدأ، ولا أين ينتهي هذا الكلام الّذي لا يجد طريقه إليك، كلّ ما أعرفه أنّي أكتب إليك كما لو أنّ قلبي يهرب من صدري، ويبحث عن يدٍ تُسكِته أو تُعيده.

يا أنت...
يا أوّلَ خفقةٍ صدقتُها، وآخر خيبةٍ ما زلتُ أتعثّر بها، أريدكِ أن تعرفي شيئًا واحدًا فقط.

لَم يَحدُث يومًا أن تجاوزتُك، ولا استطعتُ أن أضعكِ في مكانٍ يشبه النسيان.
كنتِ وما زلتِ المسافة الّتي أضيع فيها، والطريق الّذي لا يُكمِلُه أحدٌ غَيري.

أعرفُ أنّ حياتك صارت في مكانٍ آخر، وأنّ قلبكِ اختار غير الطَّريق الّذي وقفتُ فيه طويلًا.
وأعرف أيضًا أنّ الحديث عن العودة يشبه الحديث عن معجزةٍ لا تأتي.

لكن...
كيف أخبركِ أنّ قلبي ما زال يحدثني عنكِ كلّ ليلة؟
وكيف أقنع رَوحي بأنّ كلّ الأبواب التي أَغلقتِها، ما زالت تُصدر صوتكِ كلّما مسّها الحنين؟

ميلار...
لم أكتب إليك كي أستعيدك، ولا كي أطلب ما لم يعد لي، أكتب لأني تَعبتُ من حمل ما لا يُحمَل، أكتب لأنّ الصمت صار أضيق من هذا القلب، أكتب لأنّي ما زلتُ رجلًا يقف عند ظلّكِ، ويخجل من اعترافٍ لم يجد صدرًا يحتضنه.

إن قَدرَت يداكِ يومًا أن تلمسا المطر، فاسمحي لقطرةٍ واحدة أن تقع على يدك.
قد تكون دمعةً منّي وصلت إليك متأخّرة، مثل كلّ شيءٍ جميلٍ فاتني.
لا أريد شيئًا.
لا عودة، ولا لقاء، ولا تبريرًا لماض يعرف الله كيف كسَرَني.
كلّ ما أريده، أن تعرفي أنّ هناك قلبًا في هذا العالم، ما زال يتهجّأ اسمكِ كأنّه دعاء.

ميلار...
أكتب إليكِ الآن، لا لأنّي قويّ، بل لأنّي وصلتُ إلى آخر ما يمكن أن يحتمله إنسان.
كُلُّ ما انكسر داخلي منذ رحيلك صار ثِقلًا يمشي فوق صدري، ولا أعرف لماذا أصرُّ على البقاء حيًّا وأنا لستُ كذلك فعلًا.

أريد أن أقول لكِ شيئًا لم أجرؤ يومًا على قوله، لقد انتهيتُ يا ميلار...
نعم...
انتهيتُ من كثرة الأماني الّتي ماتت قبلي، ومن الليل الّذي كان يلتهمني كلّما فكرتُ بك.
لم أعد الرجل الّذي كنتِ تعرفينه.

تغيّرتُ صار وجهي يُشبه الخسارة، وعَيْناي تشبهان رجلًا لم يعد ينتظر شيئًا من الدنيا، لَا حبًّا ولا خلاصًا ولا حتى صدفةً تداوي نصف جرح.

أتعرفين ما يؤلمني حقًا؟
ليس رحيلك، بل أنّي ما زلتُ أراكِ في كلّ شيء، وكأنّك لعنةٌ جميلة لا تريد أن تغادر.
أقسو على نفسي، أتهرّب من أماكن وجودكِ، أكسر ذكراكِ داخل قلبي كلّ يوم لكنّها تعود.
تعود كأنّها تعرف تمامًا أين يؤلمني كي تضغط هناك.
أحيانًا أحسد نفسي القديمة...
ذلك الرجل الّذي كان يظنّ أنّ الفراق وجعٌ عابر، لم يكن يعلم أنّك ستصبحين جرحًا مقيمًا، جرحًا لا يشفيه الوقت، بل يوسّعه.
ما زلتُ أريدك...
لا أريد العودةَ، ولا أن يمسّني صوتكِ، ولا حتى أن تنظري نحوي، ما أريده شيء واحد فقط:
أن تفهمي أنّ هذا القلب الّذي مات لأجلك، لم يستطع أن يُدفَن بعد.
وإن رأيتِ المطر يومًا، ورأيتِ قطرةً تسقط وحدها بعيدًا عن السيل فاعرفي أنّها تشبهني.
تسقط دون أن يلتفت إليها أحد.»

أغلق دفتره واقترب من الباب، مدّ يده إلى المقبض كاد يفتحه.
لكنّه توقّف، شيء ما، رُبّما ذكرى، رُبّما صوتها القديم، رُبّما بقاياه منعه.
عاد إلى الداخل، جلس على الأرض وهمس:
«لستُ جاهزًا للرحيل، ولستُ قادرًا على البقاء.»

وهكذا بقي معلّقًا بين مدينةٍ لا تُنقذه، وامرأةٍ لا تعود، وقلبٍ لا يموت، بقايا رجل لم يكتمل.
ظلّ جالسًا طويلًا، لا يتحرّك، كأنّ العالم أصبح شيئًا بعيدًا عنه.
مرّت دقائق، ثم ساعات، وبقي على الوضع نفسه.
رفّ جفناه، أغلق عينيه، ظهر وجهها خلف الجفنين ابتسامتها صوتها:
«رانيل... لماذا تجعل الحياة أثقل ممّا هي؟»
فتح عينيه مع خيط الفجر الّذي دخل من خلف الستارة.
الفجر، النور الّذي لا يغيّر شيئًا، لكنّه يخبرك أنّ العالم سيستمرّ سواء قمتَ أم بقيتَ على الأرض.
مدّ يده إلى الحقيبة قرب الباب ثم تركها.
فتح النافذة، دخل هواء الفجر البارد.
همس:
«يا ربّ... أريد أن أشفى، لكنّي لا أعرف كيف.»

كانت تلك أول مرة يعترف فيها بالعجز لا بالحبّ ولا بالخسارة.
في الساعة السابعة صباحًا، دقّ هاتفه.
كان الصوت: **لارين**.
فتح الخط.
لارين بقلق:
«رانيل... حسّيت إنّك مو بخير. حكيت معي مبارح؟ عملت شي؟ وينك؟»
رانيل بصوت خافت:
«لارين... أنا كنت راح اترك البلد.»
سكت لارين، ثم قال بخوف حقيقيّ:
«لو طلعت كنت راح تختفي. تعال عندي هلق. قبل ما تتّخذ أي قرار غبي.»
رانيل:
«ما بعرف إذا فيني أجي...»
لارين تقاطعه:
«لا تفكّر، تعال إذا ما إجيت رح آجي أنا.»
ابتسم رانيل ابتسامة صغيرة يولدها التعب.
أغلق الهاتف.
وقف نظر إلى الحقيبة، إلى الرسالة، إلى النافذة، ثم قال:
«سأخرج... ليس لأنّي بخير، بل لأنّي لم أعد أريد أن أموت وحدي.»

ارتدى معطفه، وترك الحقيبة وأغلق الباب.
وفي الطريق إلى بيت لارين كانت المدينة مختلفة.
لا لأنّها تغيّرت، بل لأنّه ينظر إليها من تحت حملٍ لم يعد يخفيه.

ولوهلة شعر أنّه قد لا يرحل اليوم.
ليس لأنّ ميلار عادت، ولا لأنّ الوجع انتهى،
بل لأنّ الحياة، رغم قسوتها،
منحتَه يدًا تمتدّ نحوه اسمها لارين.

وذلك وحده كان كافيًا ليؤجّل الرحيل،
ولو ليومٍ آخر.

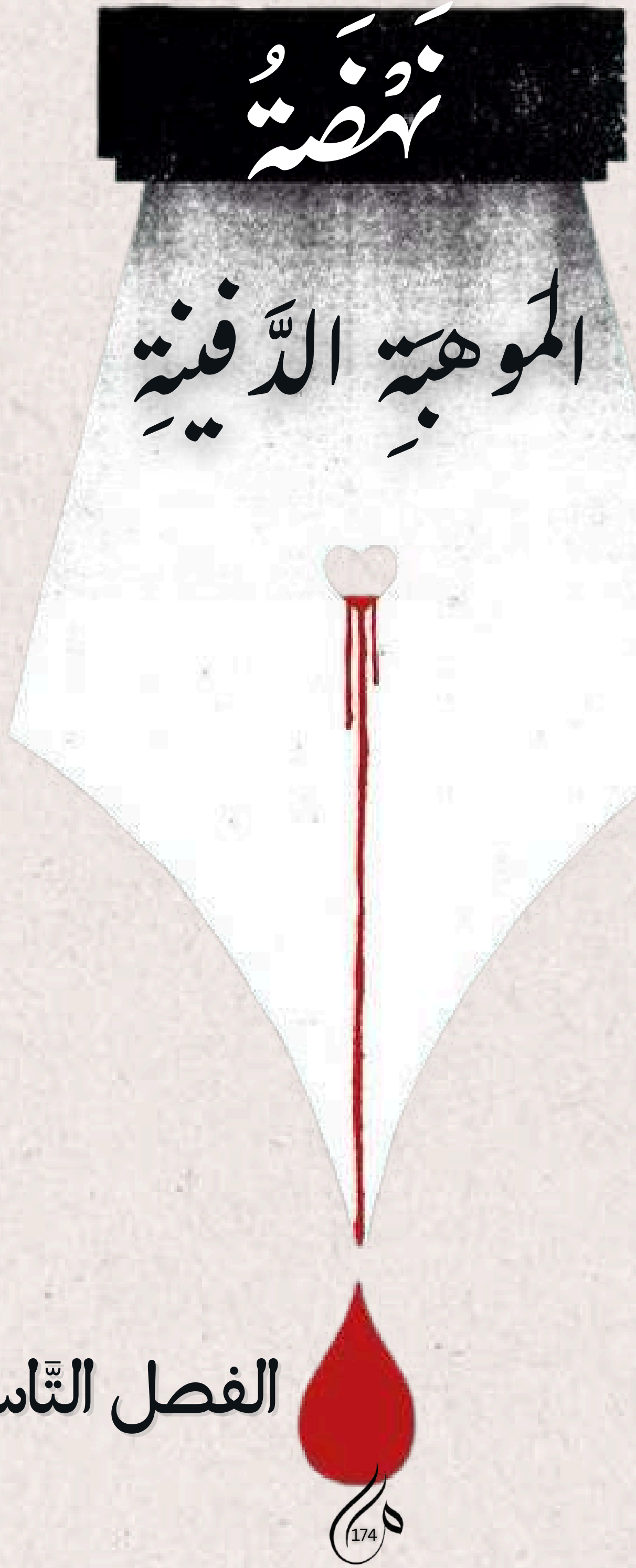

نَهَضَةُ

المَوهبَةِ الدَّفينَةِ

الفصل التَّاسع عشر

نَهْضَةُ المَوْهِبَةِ الدَّفِينَةِ

"الموهبةُ الّتي تُكتمُ في الصمتِ
تنتظرُ من يُحرّرها لتزدهرَ."

مرّت الأيام، ثم الشُّهور، وكأنّ الزمن أراد أن يطبّع أثره على قلب رانيل.
لم يعد ذلك الشاب الغارق في الحزن، الّذي يقف أمام نافذة غرفته منتظرًا معجزةً لم تأتِ.
كان الليل لا يزال يهمس فِي أذنه بأصداءِ الذكريات، لكن رانيل بدأ يجد منفذًا للروح، متنفسًا في الكلمات.

في البداية، كان كاتبًا بسيطًا، يمسك الدفاتر القديمة، يسجّل فيها خيوط شعوره وأفكاره، يربطها بأسطر مرتعشة من الشعر والنثر، يحاول أن يصف ألم القلب بأسلوبه الخاص.
كلّ كلمة كانت بمثابة نبضة صغيرة، تذكّره بأنّه ما زال حيًا رغم كلّ شيء.
وبينما كان يكتب في صمت، تعرّف على شخصٍ غريب عبر الإنترنت، شخص لم يلتقِ به وجهًا لوجه، لكنّه شعر معه بتقارب غير معتاد.
«اسمه رائد»

كان رائد مستمعًا صبورًا، يعرف كيف يسمع دون أن يحكم، وكيف يحفّز دون أن يفرض، في كلّ محادثة، كان يعطي رانيل مساحة ليكون نفسه، ليعبّر عن خوفه، حزنه، فرحه، وحتى شكوكه.

مع مرور الوقت، تطوّرت صداقتهما إلى رابط أقوى من مجرد تبادل الرسائل، أصبح رائد الشريك الرّوحيّ الّذي يعكس أفكار رانيل، ويحتضن طموحه الأدبي.

كان دائمًا يرد:

"اكتب ما يوجعك، فالألم أصدق معلم للكتابة."

وشيئًا فشيئًا، بدأ رانيل يكتشف أنّ الكلمات كانت طريقه للنجاة، طريقه للبقاءِ على قيد الحياة.

بدأ ينشر مقالات قصيرة على مواقع الأدب، ثم شعرًا قصيرًا، ثم نصوصًا أدبية أطول.

لم يكن النجاح فوريًا، بل كان تدريجيًا؛ كلّ منشور صغير يلقى صدى لدى القليل، وكلّ إعجاب أو تعليق كان يزرع بذرةً جديدة في روحه.

وفي مرحلة لاحقة، لاحظ رانيل أنّ موهبته لم تعد مجرد هواية، بل كانت شيئًا أكبر، شيء ينبض في داخله، شعر أنّ الشعر والكتابة أصبحا جزءًا منه، كأنّهما جسده الثاني الّذي يستطيع التعبير عنه بلا خوف.

وكلما كتب، تحوّل جزء من ألمه العميق إلى كلمات، كأنّ الحزن أصبح مصدر قوّة خفية، لا ينتهي أبدًا، لكنّه مفيد.

كان النجاح يبدأ بالظهور شيئًا فشيئًا. كتب أول مجموعة قصصية صغيرة، ثم رواية قصيرة، ثم بدأ الناس يلاحظون صوته الأدبي الفريد.

بعض القرّاء كتبوا له رسائل امتنان، آخرون شاركوا قصصهم وأحاسيسهم، وكأنّ كلماته فتحت لهم نافذة صغيرة يطلّون منها على وجدان آخر.

ثم جاء اليوم الّذي قرّر فيه رانيل تأسيس فريق أدبي خاص به.
ضمّ فيه أفضل الموهوبين الذين تعرّف عليهم عبر الإنترنت، أولئك الذين يشعر معهم أنّ الكلمات ليست مجرد حروف، بل نبضات حياة.
أسس فريقه ليكون منصة للكتابة والإبداع، ليكون بمثابة حضانة للمواهب الجديدة، وليرسخ فكرة أنّ الأدب قادر على الشفاء.
خلال هذه الفترة، استمر رانيل في بناء نفسه، لكنّه لم ينسَ ميلار لحظة واحدة.
لم يعد الحنين ألمًا مستمرًا في قلبه، لكنّه كان رفيقه الصامت، الظلّ الّذي يرافقه في كلّ نص يكتبه، في كلّ مشروع يبدأه.

أحيانًا كان يكتب عن الحبّ، أحيانًا عن الفقد، وفي بعض الأحيان يكتب شعورًا لم يستطع التعبير عنه بصوتٍ مسموع، لكنّه يضعه على الورق، فيطمئن قلبه قليلًا.

ومع كلّ هذا النجاح، بدأت فرص جديدة تفتح له أبوابًا لم يتوقعها. أصبح مدعوًا لمؤتمرات أدبية، وشارك في ورش عمل، وتعرّف على كتاب معروفين في مجاله.
ومع ذلك، كان أكثر ما يسعده هو رؤية فريقه يكبر وينمو، وكيف أنّ كلماته أصبحت تلهم الآخرين كما ألهمه رائد يومًا.
رغم كلّ الإنجازات، بقي رانيل يحمل داخله جزءًا لم يُغلق بعد:
ميلار...
لم يكن يكتب عنها دائمًا، لكنّه يعرف أنّ جزءًا من كلّ نجاحاته يعود إليها، جزء من صموده، جزء من كلّ لحظة ألم حولها إلى إبداع.
كانت ذكراها كالظلّ اللطيف الّذي يرافقه، يذكّره بأنّ الحبّ الحقيقيّ، حتّى لو تغيّر شكله، لا يموت أبدًا.

وبينما تتوالى النجاحات، وبينما أصبح اسمه معروفًا في الأوساط الأدبية، اكتشف رانيل شيئًا مهمًا:
أنّ الحياة، رغم قسوتها، تمنح دومًا فرصة للنهوض، وأن الألم، إن تم تحويله إلى كلمات، يصبح وقودًا للنمو والتميز.

رانيل الآن...
لم يعد ذلك الرجل الّذي تهشّم بين خفقات قلبه وذكرياته، ولم يعد ذلك الظلّ الذي كان يتلوى في صمت داخله، يئنّ تحت ثقل الفقدان والخسارة.
أصبح شخصًا جديدًا، رجلًا عرف كيف يحوّل جراحه إلى كلمات، وألمه إلى إبداع، وكيف يجعل من كلّ دمعة نهرًا يروي أرض موهبته.
أصبح نسيمًا يحمل الحروف كما يحمل السرّ الأعظم في حياته، يتنفس الإلهام، ويطوي الليالي الطويلة بصمت داخلي ليخرج في النهار بابتسامة لا يعرفها إلا من عرفوا الألم قبله.

تعلّم كيف يحوّل كلّ خيبة إلى درس، وكلّ فقدٍ إلى شعور يُترجَم إلى نص، وكلّ لحظة وحيدة إلى نافذة تطل علًى عوالم لم يكن يعرفها من قبل.

أصبحت قوته في قلبه، وإبداعه في يده، وسعادته في الكلمات الّتي يكتبها، وفي صداقة نادرة مثل صداقته مع رائد، الّتي صارت ملاذه، ورفيق دربه في عالم الكتابة، حيث يشارك أحلامه وأفراحه، ويجد دائمًا من يصدّقه، ويقدّر ما يفعله، ويعطيه الدفء الّذي افتقده طويلاً.

رَحيلُ لَن يَتخطّاه

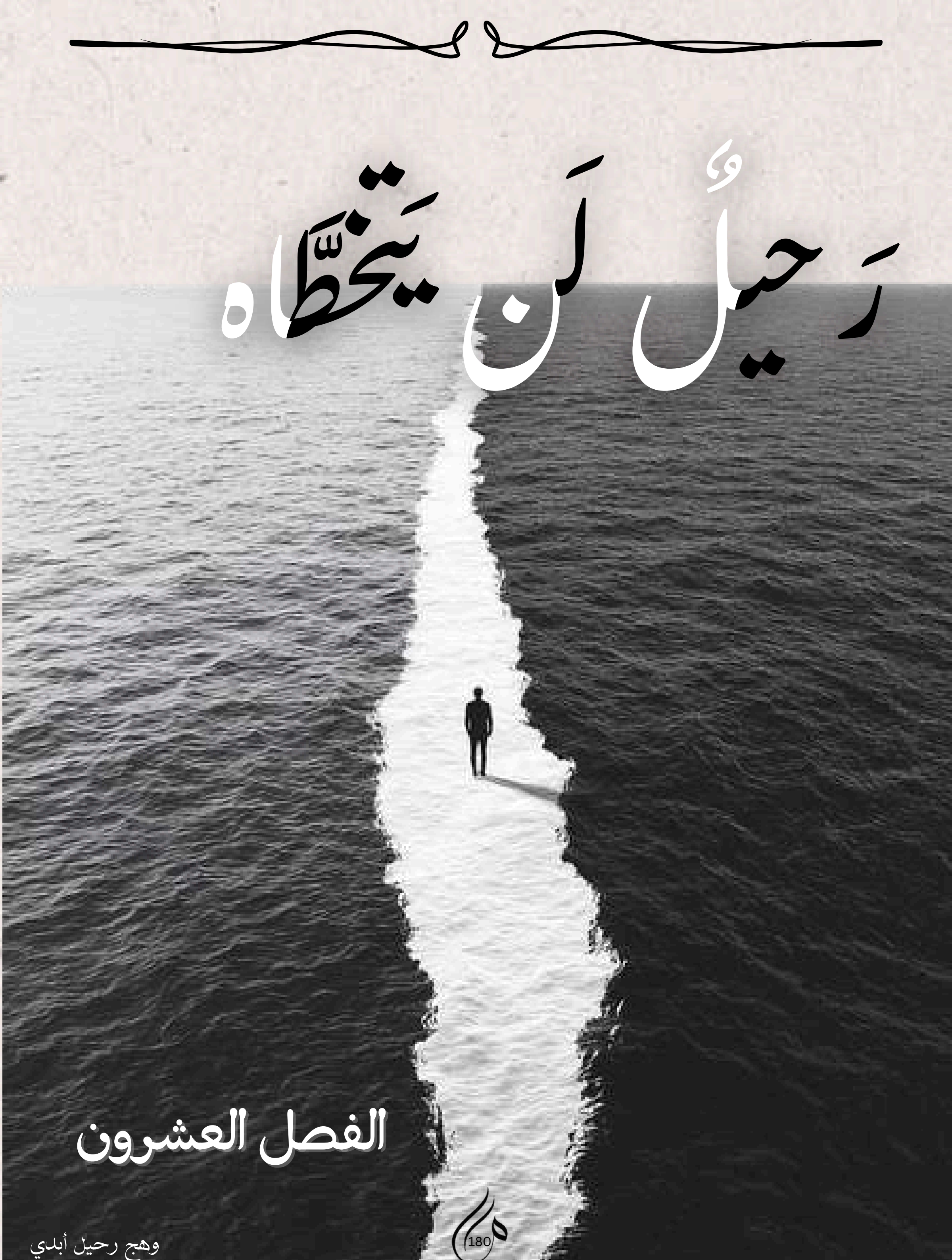

الفصل العشرون

وهج رحيل أبدي

رَحيلٌ لَن يَتخطَّاه

"أقسى ما يَمُرُّ به الإنسانُ أحيانًا هو فُقدُ من يُحبُّ."

مضَت الأَيّام، وتتابعتِ الشُّهور، وكأنّ الزَّمنَ نفسه أراد أن يُعلّم رانيل درسَ الصَّبر علىَ الألم، أو رُبّما أراد أن يُختبرَ صمودُه أمام غيابٍ من كان قلبُه يشتعلُ لأجلها.

خلال هذه الفترة، لم يتركه أصدقاؤه الحقيقيون، على الرغم من أنّ الحياة أخذت كُلّ واحدٍ في مسارٍ مختلف.

أمير وماريا بقيا في حياته، لكنّهما اختارا أن يمضيا قدمًا، كُلٌّ على طريقه الخاص، يحاولان بناءَ مستقبلٍ جديد.
لم ينسوا رانيل، ولم يتخلّوا عن صداقتهم معه، لكنّهم أصبحوا أقل حضورًا، أكثر انشغالًا بمسؤولياتهم وواجباتهم.

كان وجودهم نوعًا من الدعم الصامت:
رسائل قصيرة بين الحين والآخر، لقاءات متباعدة، نصائح ودية، وحتّى مجرد سماع صوتهم على الهاتف كان كافيًا ليشعر رانيل بأنّه ليس وحيدًا بالكامل.

لارين، من جانبها، كانت دائمًا بالقرب منه.
كانت السند الّذي يمكنه الاعتماد عليه، المرأة الّتي تفهمه بلا كلمات كثيرة، الّتي تعرف متى يحتاج إلى صمت، ومتى يحتاج إلى حديث يخفف عن قلبه، كانت تتشارك معه الضحك والحزن، وتكون الملًجأ عند لحظات اليأس.

إلى أن جاء اليوم الّذي وجدت فيه قلبها رفيقًا جديدًا، شابًا نقيّ القلب، صادق المشاعر، يمكنه أن يمنحها الأمان وَالحُبّ الّذي تبحث عنه.
أخبرت رانيل عن زواجها، عن حياتها الجديدة، عن اختيارها للفرح والاستقرار، ولم يكن في ذلك أي جرح أو ترك، بل كان استمرارًا للرحلة الطبيعية للحياة، حيث لكلّ شخصٍ نصيبه من السعادة.
رغم هذه التغييرات، لم يتركوا رانيل تمامًا، وجودهم ولو بشكل متقطع، كان يذكّره بأنّه ليس وحيدًا، وأنّ الصداقة والوفاء لا ينتهيان رغم المسافات والظروف.
كانوا ظلّه الدافئ، الحضور الّذي يمنحه شعورًا بالأمان وسط قلبه المتخبط، وسط ألمِ الحنين وَالشّوق الّذي لم يزُل.
ومع ذلك، بقي رانيل وحيدًا مع مشاعره الحقيقية تجاه ميلار، ومع شوقٍ لا يهدأ، وألمٍ لم يجد له دواء سوى الكلمات.

رانيل...
ظلّ يعيش في خضمّ تخبّط المشاعر، سنواتٌ مضت، لكنّه لم يجد راحةً حقيقية، لم يجد قلبه يهدأ، شوقُه لميلار لم يخفف، بل أصبح جزءًا من كيانه، شعورًا متجذّرًا لا يُمحى، ألمًا يتجدّد مع كُلّ صباح، ويكبر مع كُلّ مساء، كلّ يومٍ يمرّ، كان كأنّ قلبه يُذكّره بها من جديد، كأنّ كلّ زاويةٍ من حياته تصرخ باسمها، وكلّ مكانٍ كانا فيه معًا يرفض أن يتركه يمرّ دون أن يُذكّره بالفراغ الّذي خَلفَته.
حياته المهنية والأكاديمية، الّتي كان يراهن عليها ويبني فيها طموحاته، تحطّمت كأوراق في مهبّ الريح.
كُلّ مشروعٍ لم يكتمل، كُلّ فكرةٍ لم تجد من يشاركها، كانت تذكّره بأنّه لم يعد كما كان، وأنّ فقدها تركه وحيدًا أمام عالمٍ صار باهتًا، خالٍ من أي لون يمكن أن يُسرّ قلبه.
حتى النجاحات البسيطة لم تعد تمنحه الشعور بالكمال، كُلّ إنجازٍ صغير كان يظل ناقصًا، لأنّ جزءًا منه بقيّ مع ميلار، في مكانٍ لا يستطيع الوصول إليه.
كان رانيل يسير في المدينة، وأشياءها الصغيرة تصرخ بحضورها الغائب:
كراسي المقهى الّتي اعتادوا الجلوس عليها، الشارع الّذي ساروا فيه يومًا، رائحة المطر الّتي كانت تجمعهما، أو حتّى أوراق الأشجار الّتي تتساقط كأنّها دموع الطبيعة على ما فقد.

كُلّ شيءٍ كان يذكّره بأنّها ليست هناك، وأنّ الحياة لا تكمل فرحتها إلا بوجودها.
ورغم كلّ هذا، لم يستسلم رانيل تمامًا.
كتب، صاغ كلمات، جمعها في دفاتر، في أوراق متناثرة، في رسائل لم تُرسل، وفي قصائد لم تُقرأ.
كان الكتابة بالنسبة له نافذة صغيرة يطلّ منها على عوالم لم يعرفها قبل ذلك، على مشاعرٍ لم يستطع التعبير عنها بصوتٍ مسموع، على خيالات تُخفّف عن قلبه.
مضت السنوات، ومع كُلّ نصّ جديد، ومع كُلّ مقالة أو قصيدة، بدأ يسمع صدىً لعمله، رسائل امتنان من قرّاء شعروا بما يكتب، وجدت كلماته طريقها إلى قلوبهم كما وجد رائد طريقه إلى قلبه منذ البداية.
الصديق الّذي لم يره أبدًا وجهًا لوجه، لكنه كان دائمًا حاضرًا، يصدّقه ويشجّعه، يعطيه الدفء الّذي افتقده طويلاً، ويعلّمه أنّ الكلمات أحيانًا تُعيد بناء الرّوح قبل أن تعيد بناء الحياة.

مع مرور الوقت، أصبح رانيل أكثر قوّة ووعيًا بذاته.
لم يعد يركض خلف الماضي، لكنّه لم ينكره، بل احتضنه.
كلّ ذكرى، كلّ ألم، كُلّ دمعة ذهبت لم تُنسَ، بل تحوّلت إلى حروف، إلى نصوص، إلى فنّ يمكن أن يقدّمه للعالم.

أصبح يشعر أنّ موهبته ليست مجرد هواية، بل هي جزء من روحه، جسده الثاني الّذي يستطيع من خلاله التعبير عن أعظم المشاعر الإنسانية:
الحُبّ، الفقد، الشَّوق، الألم، والأمل المتجدّد رغم كُلّ شيء.

حتّى ميلار...
الّتي لم تعد جزءًا من حياته اليوميّة، بقيت حضورًا صامتًا في أعماله، ظلًّا لطيفًا يرافقه في كُلّ نصّ، في كُلّ مشروع، في كُلّ فكرة جديدة.

لم يعد الحنين ألمًا يستنزفه، بل أصبح وقودًا يحركه، مصدرًا يفتح له نوافذ كان يعتقد أنّها مغلقة، كانت ذكراها دائمًا هناك، تذكّره بأنّ الحُبّ الحقيقي، مهما تغيّرت الظروف، لا يموت أبدًا، وأنّ فقده لا يعني نهاية الروح، بل بداية لاكتشاف قوّة داخلية لم يعرفها من قبل.
ورغم كلّ النجاحات والإنجازات، بقي رانيل يبحث عن نفسه بين الماضي والحاضر.
في بعض الأيام، كان يشعر بالوحدة العميقة، كأنّ العالم حوله لا معنى له بدونها. في أيامٍ أخرى، كان يشعر بقوّة خفية، مصدرها الكلمات الّتي يكتبها، وفي فريقه الأدبي، وفي كُلّ قلبٍ يلمس أعماله.

كان يحدّق أحيانًا في السماء، يتساءل عن مصيره، عن قدرة قلبه على الشفاء، عن قوّة كلماته على أن تمنحه معنىً جديدًا.

ظلّ واقفًا بين الأمس الّذي لم ينسَه، واليوم الّذي يحاول أن يبنيه وبين قلبٍ لم يتوقف عن الاشتياق، وروحٍ تبحث عن معنى وسط عالمٍ يستمرّ في الحركة دون أن ينتظر أحدًا.

رانيل...
ظلّ يعيش بين الحنين والإبداع والشَّوق، بين صمت المدينة الّتي لم تعد تعرفه كما عرفها، وبين دفء الكلمات الّتي تُكتَب قلبه على الورق.
أصبح كلّ يومٍ يمضي درسًا، وكلّ لحظة ألم تتحوّل إلى نصّ، وكلّ دمعة تروي أرضَ موهبته.

ورغم كُلّ شيء، بقيت الحياة تمنحه فرصًا صغيرة للنهوض، للكتابة، ولإعادة اكتشاف ذاته في كُلّ حرف يخطّه.
لم تعد الأيام مجرد مرور للوقت، بل كانت لوحات تُرسم بكلماته، وألحان صامتة تعزف على وتر قلبه، يحمل معه أثر ميلار في صمته، في نصوصه، وفي كلّ نفسٍ يختصر فيه الماضي والحلم والأمل.

"قد يغادر من نحبّ، وقد يبتعد الزمان، لكن قلبًا عرف الحُبّ الحقيقي لا ينسى، والشَّوق يصبح قصيدة صامتة تتردد بين النبض والكلمات."

الخاتمة

"وعند نهاية الطريق الطويل، حين تختتم الزَّمن رحلته، تَنطفئ الأصوات وتَخْفَت الأضواء، يظلّ القلب يَتذكّر كلّ ما أَحبّ، وكلّ ما فَقَد، ويَكتشف أنّ معنى الحياة لا يُقاس بما نَمتلكه، بل بما نَحمله في داخِلِنا من حُبّ، وَوفاء، وذِكريات تَبقى شُعلةً في الرُّوح مهما ابْتعد الزَّمان."

ورغم أن الأَيّام رحلَت بسرعَة، وتركَ الزّمان خلفَه أثره على كلّ قلب عاشَ الحبّ أو فَقَدَه، ظلَّ رَانِيل واقفًا في صَمت عَميق، متأمّلًا رِحلته كلَّها، يَلتقط من كلّ ألم درسًا، ومن كلّ دَمعة شُعاعًا، ومن كلّ فَرَح لحظةً خالِدَة.

أدرك أخيرًا أنّ الحبَّ ليس مُجرّد حُضور من نُحبّهم في حياتِنا، بل هو شُعلة تُضيء الرّوح حتّى بعد الرحيل، وهو أثرٌ يَبقى مَحفورًا في الذاكرة، لا يَزول مع المسافات ولا مع مرور السنوات.

ميلار، التي غابت جَسديًّا عن حياتِه، لم تغب عن رُوحِه أبدًا.
كان غيابُها مِرآة تعلّمَ منها قيمة الحنين، وعمق المشاعر، وعلّمَه أنّ القَلب الّذي أحبّ بِصدق لا يَنسى، بل يَنقّب في أعماقِه عن القوّة الكامنة، وعن الجمال الّذي يُولد من الألم.

يبحث عن وُجودِها ليُكمّل فَرحَه، عن معنى ما حملَه حُبّه لها، عن حِكمة الفقد، وعن القدرة على الحبّ بلا شُروط، بلا قيود، وبلا خوف من الغياب.

أمير وماريا، ولارين...
كانوا دَعائم صامِتة، حُضورهم ثابِت رغم بُعدهم، ووجودهم المُتقطّع علّمه أنّ العلاقات الحقيقية لا تُقاس بعدد اللقاءات، ولا بالكلمات المَنطوقة، بل بالوفاء، والصدق، والقُدرة على التقدير، وبأنّ القَلب الّذي يزرع الحبّ حقّا، يَعرِف كيف يكون ممتنًا لكلّ من مَرّوا في حياتِه وأضاءوا دُروبَه، مهما طالَت الفواصل.

رَانِيل...
أصبح يَعرِف الآن أنّ الألم ليس خصمًا، بل معلمًا، وأنَّ الحنين ليس ضعفًا، بل دليل على عمق المشاعر، وأنّ كلّ فقدٍ يَحمِل فرصة لإعادة اكتشاف الذات، وإعادة بِنَاء الرُّوح.
كلّ دَمعة ذَرفها،
كلّ شعور بالخذلان،
كلّ فَرحة صغيرة أو لحظة صَمت،
كانت رسائل من الحياة تقول له:
"الحبّ، والفقد، والشوق، هم ما يصنعون الإنسان، وهم ما يجعلون القلب قادرًا على النور بعد الظلام".
الكِتابة أصبحت له مَلاذًا، لغة صامِتة يُترجِم فيها كلّ ما يختلِج في قلبِه من أحاسيس، كلّ ما ترَكه الماضي من أثر، وكلّ ما يُبنيه المستقبل من أحلام.
كل نصّ يَخطّه كان بمثابة رسالة للحياة نفسها، رسالة عن الصمود، عن الوفاء، عن القدرة على الحبّ بلا انتظار، وعن الشجاعة لمواجهة الأيّام مهما حملت من غياب أو خَذلان.

وفي النِّهاية، أدرك أنّ القوّة ليست في امتلاك كلّ شيء، ولا في الاحتفاظ بمن أحبّ، بل في القدرة على العيش بِصدق، على الحبّ بلا خوف، على الامتنان لكلّ لحظة، وعلى معرفة أنّ كلّ رحيل يَحمِل في طيّاته وَهجًا جديدًا، وكلّ فقد يَحمِل دَرْبًا إلى اكتشاف الذات، وكلّ ألم يَخلق شُعلة نُور داخل الرُّوح، شُعلة لا تَنطفئ أبدًا.

وهكذا،
أصبح وَهجُ رَحيلِ أَبَدِيّ في قلبِه نورًا خالِدًا، شُعلة صامتة تُعكِس معنى الحياة بكلّ تناقضاتها، الحبّ بكلّ أشكاله، الفقد بكلّ ألمه، والأمل مهما طالَ الزمن.
أدرك أنّ الإنسان قد يَغادِر من يُحبّ، وقد تَبتعد الطّرق، وقد تُغيّر الأيّام مَجرى القلوب، لكَن من عرف معنى الحبّ الحقيقيّ، ومن عاشه بِصدق، يحمِل في قلبِه نورًا لا يَموت، وهجًا أبديًّا لا ينطفئ، ودرسًا خالدًا عن قيمة الحياة، عن قوّة الرُّوح، وعن معنى البقاء رغم كلّ شيء.

"الحبّ الحَقِيقيّ يَبقى في صَمت الرُّوحِ، والفقد يُصبحِ دَربًا نحو القوّة، والقُلوب الّتيِ عاشت بِصدق لا تَنطفئ أبدًا، بل تَتحوّل إلى وَهجٍ أَبدِيّ يُضيء طَريق الحياة مهما ابتعد من نُحبّ."

الفهرس

- الإهْدَاء
- المُقَدّمَة
- مَقْطَع رانيـل
- مَقْطَع ميـلار
- الفَصْلُ الأوّل – وَهَجٌ يَصْحُو مِنَ الصَّمْت
- الفَصْلُ الثّانِي – ظِلّانِ يَمْشِيَانِ بِاتّجَاهٍ وَاحِد
- الفَصْلُ الثّالِثُ – قُلوبٌ تُنقِذُهُ مِن الظِّلال
- الفَصْلُ الرّابع – سَنَواتٌ تَذُوبُ بِبُطْءٍ
- الفَصْلُ الخامِس – مَسارٌ يَتَشعَّبُ في الظِّلال
- الفَصْلُ السّادِس – طَرِيقٌ يَطوي صَدَاهُ الأَخِير
- الفَصْلُ السّابِع – غُروبٌ يَتَغَيَّرُ مَعهُ كُلُّ شَيءٍ
- الفَصْلُ الثّامِن – ليلٌ يَمْتَدُّ فوق الرّوح
- الفَصْلُ التّاسِع – اعْتِرافٌ كَسَّر حُدودَ الصَّمت
- الفَصْلُ العاشِر – حينَ خَذَلَهُ القَلْبُ وَالقَدَر
- الفَصْلُ الحادِي عَشَرَ – صَاعِقَةُ الفَقْدِ
- الفَصْلُ الثّانِي عَشَر – أَثَرُ صَدعٍ في الذّاكرة
- الفَصْلُ الثّالِث عَشَر – الظِّلُّ الّذي يَسقُطُ مِنَ الرّوح
- الفَصْلُ الرّابِعَ عَشَر – لَيلَةُ المَطَرِ الثَّقيلَة

الفهرس

- الفَصْلُ الخامِس عَشَر — نَجاةٌ تَتَعَثَّرُ بِظِلِّ الذّاكرة
- الفَصْلُ السّادِس عَشَر — ظِلٌّ يَمْتَدُّ في حَيَاةٍ أُخْرَى
- الفَصْلُ السَّابِع عَشَر — سَنَدٌ يَنْهَضُ بِالقَلْبِ
- الفَصْلُ الثّامِن عَشَر — بَقايا رَجُلٍ لَمْ يَكْتَمِلْ
- الفَصْلُ التّاسِع عَشَر — نَهْضَةُ المَوهِبَةِ الدَّفِينَةِ
- الفَصْلُ العِشْرُون — رَحِيلٌ لَنْ يَتَخَطَّاه
- الخاتِمَة

وهج رحيل أبدي

A Glow of an Eternal Departure
Anas Karoze

"وهج رحيل أبدي" للكاتب أنس كروزة نصّ أدبي واقعي يحمل مشاعر الفقد والوداع الدائم. بأسلوب شاعري، يُجسّد لحظة الغياب وما يتركه من أثر عاطفي عميق.

في قَلبِ كلّ ذِكرى، هناكَ وهجٌ لا ينطفئ، يُضيءُ الصّمت ويصنعُ من الألم جَمالًا صامتًا.

روايةُ "وَهجُ رَحيلٍ أَبَديّ" رِحلةٌ عاطفيةٌ عبر الزمانِ والمكان، حيثُ تتشابَكُ الأرواحُ بين الحبّ والخَسارة، الصّمت والاعتراف، بين ما يُقالُ وما يَبقى مَكتومًا في الصُّدور.

كلّ صفحةٍ فيها تنبضُ بالمشاعر، و تروي صراعاتِ القلبِ الدّاخلية، وضياع الأحبّة، والبحث الدائم عن النّور وسطَ الظّلام.

إنّها حكايةُ رَحيلٍ، وفقدٍ، وحنينٍ لا يَخبو، حيث يَبقى أثر كلّ لحظةٍ، وكلّ قلبٍ لَم يكتمِل، خالدًا في الرّوحِ إلى الأبَد.

أنس كروزة "الأنيق بالصمت"

كاتبٌ عصريّ من سوريا، من حلب العريقة؛ مدينة الحرف والتاريخ.

يتميّز بأسلوبٍ أدبيّ أنيق وحضورٍ لافت، تنوّعت كتاباته لتشمل مجالات أدبية متعددة، جامعًا بين عمق الفكرة وجمال التعبير.

مؤسس ومدير فريق كيان كاتب الأدبي، ويسعى من خلاله إلى صناعة أثرٍ ثقافيّ يليق بالكلمة والإنسان.

جميع الحقوق
محفوظة